تاريخ المصريين

٨

رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د. على بركات


الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

تاريخ المصريين **٨**

رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د. على بركات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الاخراج الفنى : محمد قطب

تصميم الغلاف : أسامة سعيد

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

تقـــديم

يحتوى هذا الكتاب على رؤية مؤرخ معاصر لمؤرخ قديم • أما المؤرخ المعاصر فهوالدكتور على بركات، أستاذ التاريخ الحديث وعميد كلية الآداب بجامعة المنصورة • وهو من المهتمين بتاريخ مصر الاجتماعى ، وله أعمال علمية فى تاريخ تطور الملكية الزراعيـــة فى مصر من عهد محمدعلى حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ورؤية عــلى مبارك لتاريخ مصر الاجتماعى من واقع كتابه «الخطط التـــوفيقية » • وهو ــ بالتـــالى ــ أحسن من يعـــالج موضوعا كذلك الذى يعالجه هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء •

وأما المؤرخ القديم فهو المـــؤرخ المصرى الشـــهير عبد الرحمن الجبرتى ، وهو ليس مؤرخا قديما بمعنى

أنه ينتسب الى العصر القديم ، اذ هو ينتسب بالفعل الى العصر الحديث ، وانما بمعنى أنه أقدم من الدكتور على بركات زمنيا وليس تاريخيا • وقد اشتهر الجبرتي بكتابيه العظيمين : « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ، و « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » •

وكتاب الدكتور على بركات يقع في ثلاثة فصول وخاتمة ، أما الفصل الأول ، وهو بعنوان « المؤرخ والعصر » ، فقد عالج فيه اوضاع الدولة العثمانية والحضارة الاسلامية بوجه عام في القرن الثامن عشر ، وما طرأ عليها من أوجه الضعف والتدهور بما انعكس أثره على الحياة الفكرية . كما تناول الظروف التي بدأ الجبرتي فيها كتابة التاريخ •

أما الفصل الثاني ، فيتناول آزمة الحياة الفكرية في كتابات الجبرتي ، وفيه قدم رؤية واعية لرؤية الجبرتي للحياة الفكرية والدينية في عصره ، من واقع مؤلفات الجبرتي •

أما الفصل الثالث ، فقد عالج فيه الدكتور على بركات رؤية الجبرتي لحركة الاصلاح السلفي التي

نشأت فى شبه الجزيرة العربية · كما عالج بداية ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتبنى آل سعود لها ، وأوضح موقف الجبرتى من الصراع الذى نشب فى شبه الجزيرة العربية بين أنصار هذه الدعوة والاشراف فى البداية . ثم بينهم وبين محمد على ممثلا للسلطان العثمانى . وأظهر أن الجبرتى كان متعاطفا مع أنصار الدعوة .فكان يرى أنها تمثل الطريق الصحيح لانتشال المسلمين من وهدتهم ·

وقد اختتم هذه الفصول بخاتمة تحت عنوان « الجبرتى مؤرخا » ، حاول فيه تقييم الجبرتى كمؤرخ، وهو تقييم هام ·

وأملى أن يستمتع القارىء بهذا الكتاب بما يستحق من جهد علمى بذل فيه ·

رئيس التحرير

د· عبد العظيم رمضان

مقـــدمة

ان ألدور الذى لعبته الحملة الفرنسية فى هز القيم والمفاهيم السائدة فى المجتمع المصرى فى نهاية القرن الثامن عشر وتجربة التحديث التى قادها محمد على فى مصر وفق مفـاهيم وقيم الحضارة الغربية وتقبل المجتمع المصرى لها دون مقاومة كبيرة قضية تحتاج الى نقاش وهى أن النظام المملوكى العثمانى كان يواجه أزمة حقيقية ليس فى جوانبه المادية فحسب بل فى جوانبه الفكرية أيضـا • والدارس لما كتبه الجبرتى فى عجائب الآثار يسـتطيع أن يتبين أبعاد هذه الأزمة •

واذا كانت كتابات الجبرتي حــول هــذا الموضوع تعني رفضه لما وصلت اليه الحيــاة الفــكرية والدينية فى مصر فان ذلك يفسر اعجاب الجبرتي بحركة الاصلاح السلفى التى قادها الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى جزيرة العرب بعد أن وصلت أصــداؤها الى مصر ٠

والدراسة التى نحن بصددها محاولة للتعرف على أزمة الحياة الفكرية والدينية فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر كما رآها الجبرتي وهى توضح حقيقة هامة هى أن مصر كانت تتململ بشكل واضح فى مواجهة الأوضــاع السائدة قبل وصــول الفرنسيين بزمن ليس بالقصير الأمر الذى يدحض الفكرة القــائلة بأن الحملة الفرنســية هى التى بدأت تيــار اليقظة فى الشرق العربى ٠

الدقى فى مايو ١٩٨٧

المـــؤرخ والعصـــر

المؤرخ والعصر:

كانت الدولة العثمانية ـ فى القرن الثامن عشر ـ قد أصبحت فى حالة من الضعف باتت معها عاجزة عن مواجهة التحدى الاوربى الذى كان فى بعض جـوانبه تحديا حضاريا ، وكانت الدولة العثمانية قد دخلت فى مرحلة من الضعف ابتـداء من القـرن السابع عشر ، فالسلاطين العثمانيون الذين شهدتهم تلك الفترة كانوا سلسلة من الحكام الضعاف ، يفتقدون القدرة والمهـارة اللازمة لادارة الدولة ، وقد فتح ذلك الطريق للصراع على السلطة بين كبار الموظفين وقواد الجيش والقصر ، ومالبث آن انتقل محـور السلطة الى الصـدور العظام بتولى أسرة كوبرولو لوظيفة الصدر الأعظم فى أواخر

القرن الســابع عشر ، وفى نفس الوقت كانت الادارة المركزية تعــانى من الفساد والتــدهور وخاصة الادارة المالية (١) ٠

أما نظام الانكشارية الذى كان يمثل العمود الفقرى للنظام العسكرى فى الدولة العثمانية فقد أخذ بدوره يتدهور ويتسرب اليه الخلل وتفقد الانكشارية روحها العسكرية وانضباطها بعد أن سمح لأفــرادها بالزواج ابتداء من عام ١٥٦٦ ، كما ســمح لأبنائهم بالالتحاق بالجيش ، ومن ثم أصبحت هناك طبقة عسكرية وراثية أخذت ــ شيئا فشيئا ــ تحتكر لنفسها المناصب العليا فى الدولة ، وفى نفس الوقت فــان الدولة العثمانيــة لم تحاول أن تواكب التطورات المادية والفكرية التى حدثت فى أوربا أو تحاول اكتشاف الأســباب التى استطاعت اوربا بها أن تحقق نهضتها ٠ كما ظلت النظم العثمانية جامدة لم تتغير منذ عهد سليمان القانونى (٢) ٠

---

(١) د٠ محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (القاهرة ١٩٧٧) ، ص ١٦٥ . البرت حورانى : الفكر العربى فى عصر النهضة ، (بيروت ١٩٦٨) ص ٥١ ٠

(٢) Shaw, S.J. : History of the Ottoman Empire and Modern Turkey (Cambridge Univ. Press, 1976) p. 225.

وبينما كان ذلك يحدث كانت الدولة تجتاز أزمة اقتصادية طاحنة بعد أن فقدت أغنى ولاياتها فى المجر، كما أن التوسع الاوربى فى الشرق أدى الى تقليص تجارة الدولة الخارجية • وقد أدى تدفق معدنى الذهب والفضة الى غرباوربا من الشرق الأقصى والعالم الجديد الى ارتفاع الأسعار الذى تأثرت به الدولة العثمانية، وانعكست الأزمة الاقتصادية على الطبقات المنتجة من الزراع والصناع بعد أن تضاعفت الضرائب وتقهقرت الزراعة والحرف وهجر السكان الريف (١) •

والحقيقة أن هذه الأوضاع كانت أكثر وضوحا فى مصر فالالتزام الذى نشأ تعبيرا عن ضعف السلطة المركزية وكان يمنح كامتيازلجباية الضرائبلسنة واحدة أصبح يمنح لمدى العمر كله • ومع استمرار التدهور فى أوضاع السلطة العثمانية أصبح يورث ويمكن التنازل عنه للغير بعد أن أصبحت سلطة الدولة على أراضيها سلطة شكلية (٢) • وأصبح ذلك الوضع يمثل عنصر جذب لفئات اجتماعية جديدة من طبقات المدن معظمهم

---

(١) حورانى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ •

(٢) على بركات ، تطور الملكية الزراعية وأثرها على الحركة السياسية ١٨١٣ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٣ •

من التجار والعلماء • ذلك أنه بينما كان نظام الالتزام يشهد هذه التحولات كانت الرأسمالية التجارية التى نمت فى النصف الأول من القرن الثامن عشر تواجه تحديا عنيفا بسبب تدهور تجارة البن التى كانت تمثل نسبة عالية من تجارة العبور حيث أخذت هذه التجارة تتعرض لمنافسة شديدة ابتداء من عام ١٨٣٠ من البن المنتج فى المستعمرات الفرنسية فى منطقة الكاريبى وقد أدت هذه المنافسة الى انخفاض أسعار البن اليمنى والكميات المباعة منه فى الأسواق الأوربية، ومنطقة الليفانت ومصر الأمر الذى جعل السلطات المصرية تمنع استيراد البن المنتج فى جزر الأنتيل •

والحقيقة أن المنافسة الأوربية خلال تلك الفترة لم تكن قاصرة على تجارة البن بل امتدت الى سلع أخرى أثرت على حجم تجارة مصر الخارجية وعلى الميزان التجارى الذى لم يعد فى صالح مصر وعلاقتها مع أوربا ابتداء من عام ١٨٣٠ (١) •

والعامل الآخر : يرجع الى القلق الذى عاشته المدينة المصرية فى نهاية القرن الثامن عشر والمخاطر

---

(١) Richard. A, Egypt agricultural development 1800-1980, Golordo, 1982, pp. 7-8.

التى اصبح يتعرض لها رأس المال بشــكل عام بسبب الفتن والاضطرابات التى أصبحت طابع الحياة اليومية فى القاهرة وهى حقيقة يؤكدها الجبرتى فى أكثر من موضع (١) ٠

ولم تكن المدن الاقليمية الكبرى بعيدة عن مثــل هذه القلاقل ففى حديثه عن مولد السيد البدوى بمدينة طنطا عام ١٧٨٥ يقول الجبرتى : « ان أعوان كاشف الغربية قد أغاروا على بعض الأشراف الذين يحضرون المولد الأمر الذى تطور الى اشتباك بين العامة والجنــد حيث نهبت بعض الدكاكين ٠

ويؤكد الجبرتي ان بعض التجار قد أفلسوا بسبب هذه الأوضاع (٢) ٠

ان هــذه العــوامل تفسر وجــود عدد من التجار كملتزمين فى نهــاية القرن الثــامن عشر مثــل داده الشرايبى وغيره على اعتبار ان الالتزام وحيازة الأرض أصبحت هى المحاولات الأكثر آمنا لاستثمار رأس المال

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، القاهرة ١٢٩٧ هـ ، جـ ٢ ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٤٣ ؛ ٢٤٤ ٠

(٢) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٢٠٤ ، جـ ٣ ص ١٨١ ، جـ ٤ ص ٦٢ ٠

والأكثر ربحا(١) والحقيقة أن الرأسمالية التجارية التي كان من الممكن أن تلعب دورا فى نقل المجتمع المصرى ـ اقتصاديا ـ الى مجالات جديدة مثل الصناعة والحرف كانت تواجه تحديات أخرى منها فوضى النقد المتداول فى مصر وتعدده • وتهديد الطرق لدرجة تحول دون نمو التجارة الداخلية •

وفى نفس الوقت فان الجزء الأكبر من الفائض فى القطاع الزراعى كان يذهب الى فئات الملتزمين وكان المماليك منهم يحوزون ثلثى الأراضى الزراعية وهؤلاء كانوا يستخدمون الفائض فى مظاهر الترف المختلفة التى يعيشونها أو فى أغراض مضادة لأهداف الدولة العثمانية صاحبة السيادة بعد أن زاد تطلعهم الى السلطة واشتد صراعهم من أجلها وبذلك لم تبذل أية جهود من قبل هذه الفئات التى تحصل على الفائض من أجل وقف التدهور فى هذا القطاع أو النهوض بالزراعة •

وخلال تلك الفترة كانت سلطة الحكومة المركزية على ولاياتها قد أخذت تضعف شيئا فشيئا ، مما ترك

---

(١) د• عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، جامعة عين شمس ١٩٧٤ ص ٨٨ •

للقوى المحلية فرصة أوسع للعمل • فالفراغ الذى نجم عن تقلص سلطة الدولة فى الأقاليم ملأه الأعيان والزعماء المحليون وأصحاب العصبيات وقبائل البدو ، وفى مواجهة تدهور السلطة فى الأقاليم كان السلطان العثمانى يحاول دون جدوى أن يظل هؤلاء الأعيان أو أصحاب العصبيات على ولائهم للدولة ، فمرة يعينهم فى الوظائف الرسمية وطورا يقدم لهم الرشاوى ، ومرة ثالثة يرسل ضدهم الحملات العسكرية ، ولم يكن السلطان ومن حوله يسلكون علاجا ناجحا لهذه الأوضاع (١) •

وكان ضعف الدولة العثمانية وتخلفها أكثر وضوحا فى الولايات العربية التى أصبحت مسرحا للقلاقل والاضطرابات بعد أن أصيبت النظم العثمانية فى الشرق العربى فى القرن الثامن عشر بالانهيار نتيجة لاختلال التوازن بين السلطة المركزية ممثلة فى الباشا من ناحية وبين الحاميات العثمانية والعصبيات المحلية من ناحية أخرى ، وزاد من هذا الخلل تمرد القبائل العربية فى صحراء سوريا وفى مصر ، وكذلك تمرد قبائل الأكراد فى شمال العراق •

---

(١) Shaw : Op. Cit., pp. 253, 254.

وكان الباب العالى يعتريه الخوف من جراء هـذه الاضطرابات ، فكان يتردد بين انتهاج سياسته التقليدية فى تغيير الباشـوات العثمـانيين بانتظام وبين تثبيت هؤلاء الباشوات خصوصا أولئك الذين أثبتوا قدرة فى اخضـاع حـركات التمرد • وقد أدى تثبيت هـؤلاء الباشـوات الى تكوين أسر حاكمـة فى بعض الآيالات العربية ، مثل حكم المماليك فى العراق وآل العظم فى سوريا ، كما أدى ضعف السـلطة المركزية فى الدولة العثمانية الى قيام حركات ذات طابع انفصالى مثل حركة الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين وحركة على بك الـكبير فى مصر (١) •

وخـلال هـذه الفترة أصـبح ضعف الدولة أكثر وضوحا فى جبهات القتال وخاصـة جبهة الصراع مع النمسا وروسيا ، فالهجوم العثمـانى الذى استهدف الاستيلاء على فينا عام ١٦٨٣ (١٠٩٤ هـ) فشل فى تحقيق أهدافه وما لبث أن تحـول الى تقهقر أعقبتـه هزيمة ساحقة للقـوات العثمانيـة أمام قوات الأمير

---

(١) د• محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ص ١٥٠ ، ١٥١ •
Gibb and Bowen : Islamic Society and the West (Lond. 1959), pp. 216-217.

يوجين في معركة زنتا عام ١٦٨٧ ، وأرغم العثمانيين ـ نتيجة لذلك ـ على قبول معاهدة كارلوفتز في يناير ١٦٩٩م (١١١١هـ) التي تنازل العثمانيون بمقتضاها عن ترانسلفانيا ومعظم أراضي المجر وأجزاء كبيرة من سلوفانيا وكرواتيا للنمسا ، كما أعيدت سيادة بولندة كاملة على بادوليا وأوكرانيا (١) .

أما روسيا التي دخلت الحرب ـ خلال تلك الفترة ـ الى جانب النمسا فقد استطاعت الاستيلاء على ميناء أزوف في القرم وبعض الأراضي عبر نهر الدنيستر ، واعترف العثمانيون بذلك في معاهدة وقعت في استنبول في يوليو ١٧٠٠، وبمقتضى هاتين الاتفاقيتين وضعت روسيا والنمسا أسس تدخلهما في الدولة العثمانية ، كما وضعت اراض اسلامية ـ لأول مرة ـ تحت سيادة دولة مسيحية (٢) .

وعلى الرغم من أن العثمانيين أحرزوا بعض الانتصارات ضد روسيا والنمسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر بفضل أسرة كوبرولو الا أن ضعف الدولة العثمانية أصبح حقيقة واقعة في الفترة التالية،

---

(١) Shaw : Op. Cit., p. 223.

(٢) Ibid, p. 224.

ففى الحرب التى نشبت بين الدولة العثمانية وروسـيا بسبب المشكلة البولندية (١٧٦٨ ـ ١٧٧٧) أحـرز الروس انتصارات برية وبحرية على الدولة العثمانية . وتمكن الأسطول الروسى من الوصول الى البحر المتوسط بعد أن تحـرك من قواعده فى البلطيق ، وقد أحـدث ظهور هذا الأسطول دويا كبيرا فى المنطقة واتصلت به العناصر السلافية والارثوذكسية التى ثارت على الدولة العثمانية فى البلقان خـلال تلك الفترة بتحريض من روسيا (١) . كذلك اتصلت به العنـاصر الثائرة فى الولايات العربية مثل على بك الكبير والشـيخ ظاهـر العمر .

وفى معاهدة كتشك قينـارجى التى انهت هـذه الحرب فقدت الدولة العثمانية انفرادها بالسيطرة على البحر الأسود بعد أن أصبح لروسيا حق اقامة عدد من القواعد البرية والبحرية على شواطئه ، وأعطيت روسيا حق اقامة كنيسة أرثوذكسـية فى اسـتنبول ، وبذلك أصبح فى امكان روسـيا التدخـل فى شـئون الدولة العثمانية بدعوى حماية المسـيحيين الارثوذكس كمـا

---

(١) Ibid, p. 247.

مهدت هذه الاتفاقية لاستيلاء الروس على أراضى خانات القرم المسلمين (١) .

هكذا تضافرت عوامل الضعف الداخلى وعوامل الضغط والتهديد الخارجى لتجعل الجدار الذى ظل حائلا دون أطماع الغرب لعدة قرون غير قادر على الصمود بعد أن أصبح مليئا بالثغرات التى ما لبث أن نفذ منها الاستعمار الأوربى الى المنطقة العربية فى صور متعددة (٢) . وكان طبيعيا أن يعكس هذا الضعف المادى والفوضى السياسية تدهورا معنويا أكثر خطورة. ظهرت أثاره واضحة فى الحياة الفكرية والدينية .

أزمة الفكر والحضارة الاسلامية فى القرن الثامن عشر:

تكاد المصادر تجمع على أن الحضارة الاسلامية قد وصلت فى القرن الثامن عشر الميلادى مرحلة من التدنى والانحطاط لم يسبقلها مثيل وخاصة ذلك التدهورالذى أصاب الحياة الفكرية والدينية فى الشرق العربى ، لكن الحقيقة ان هذا التدهور ليس مسئولية العثمانيين

---

(١) د. محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٢) محمد عمارة : تيارات اليقظة الاسلامية الحديثة (القاهرة ١٩٨٢) ، ص ١٦ .

وحدهم ذلك لأنه يرجع الى عوامل تسبق زمنيا وصول العثمانيين الى المنطقة ، ويمكن اجمال هذه العوامل في عاملين رئيسيين :

١ ــ الانهاك الحضارى الذى أصيبت به المنطقة العربية من جراء الأخطار التى تعرضت لها ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى وأبرزها الهجوم الصليبى (٤٨٩ هـ / ١٠٩٦م ــ ٦٩٠هـ / ١٢٩١م) ، والغزو المغولى الذى تعرض له الجناح الشرقى من الامبراطورية الاسلامية، فى القرن الثالث عشر الميلادى · حقيقة استطاعت المنطقة أن تصفى الخطر الصليبى خلال معارك استمرت قرنين من الزمان ، كما تمكنت من القضاء على الخطر المغولى فى عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م على يد دولة المماليك فى مصر · الا أن الثمن الذى دفعته المنطقة كان غاليا ، فخلال الحروب الصليبية دمرت مناطق واسعة من بلاد الشام والجزيرة وشمال العراق ، كما غزا الصليبيون مصر أكثر من مرة · وخلال تلك الهجمات الشرسة دمرت مكتبة بنى عمار فى طرابلس الشام وهى من أغنى المكتبات فى تلك الفترة ·

أما الخطر المغولى فكان أكثر تدميرا ، ففى هجومهم الصاعق على الجناح الشرقى للامبراطورية الاسلامية دمر المغول بخارى وتركوها انقاضا لا حياة فيها بعد ان كانت مدينة مزدهرة ، وفعلوا نفس الشيء فى كل البلاد التى دخلوها ، فقد دمروا المكتبات العشر التى كانت موجودة بمدينة مرو وكذلك فعلوا بمدينة سامرة (١) .

أما بغداد فقد خربت الخراب العظيم كما يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى « وأحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم » وأقام المغول من مكتبتها جسرا عبرت عليه خيولهم الى الغرب ! ، (٢) بعد أن أنزل التتار بعاصمة الخلافة مذبحة راح ضحيتها حوالى ثمانمائة ألف من السكان من بينهم الخليفة العباسى المستعصم نفسه ، ويقال ان مياه نهر دجلة تغير لونها لكثرة ما ألقى فيها من الكتب والورق . (٣) وهكذا

---

(١) د. محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام (مؤسسة الرسالة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠ م) ص ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) ابن تغردى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٧ / ٣٨) جـ ٧ ص ٥١ .

(٣) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٧١) جـ ٢ ص ١١١٩ أيضا محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية (القاهرة ١٩٥٠) جـ ١ ص ٣٢٣ .

دمرت واحدة من أكبر ثلاث مكتبات فى العالم فى العصر الوسيط ، فالقلقشندى يذكر أن ٠٠ « أعظم خزائن الكتب فى الاسلام ثلاث خزائن احداها خزانة الخلفاء العباسيين فى بغداد ٠٠ فكان بها من الكتب مالا يحصى ولم تزل على ذلك الى أن دهمت التتر بغداد وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم وذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ٠ » (١) وقد ظلت آثار الدمار الذى أحدثه التتار فى بغداد باقية لأجيال تالية ، ذلك لأنه لم يكن من الممكن تعويض ما أتلفه التتار من التراث الفكرى وهو فى ذلك الوقت ميراث أجيال (٢) ٠

وبينما جناح العالم الاسلامى الشرقى يواجه هذه الهجمات البربرية كان جناحه الغربى يتعرض لهجمات لا تقل ضراوة عندما راحت القوى المسيحية فى شبه جزيرة ايبريا تكثف هجومها للقضاء على المسلمين وتمكنت فى النهاية من الاستيلاء على آخر معاقلهم فى الأندلس بسقوط غرناطة فى عام ١٤٩١هـ/١٤٩٢ ، وعندما تمكن المسيحيون من ذلك انقلبوا على التراث

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى (القاهرة ١٩٦٣) جـ ١ ، ص ٤٦٦ ٠

(٢) د٠ عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصر الايوبى والمملوكى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣١٥ ٠

الاسلامى يدمرون ما تبقى من كتب ومخطوطات فى مختلف فروع المعرفة ، على الرغم من أن شروط تسليم غرناطة كانت تنص على السماح للمسلمين بالاحتفاظ بدينهم وأملاكهم وكتبهم وثقافتهم (١) ٠

وهكذا كان العالم الاسلامى على مشارف العصر الحديث قد دمر الجانب الأكبر من تراثه الفكرى بسبب الهجمات الخارجية . كما أصيب بالانهاك الحضارى من جراء الجهد المتصل فى مدافعة هذه الأخطار ٠ وفى حرب البقاء هذه كان العرب قد أسلموا القيادة على امتداد الأرض العربية والاسلامية لعناصر غير عربية حديثة عهد بالاسلام وبعيدة الى حد كبير عن التراث العربى ، وهنا يكمن العامل الثانى فى أزمة الحضارة والفكر الاسلامى ٠

٢ ــ سيطرة الترك على السلطة فى الدولة الاسلامية : ذلك انه بينما كان الصراع على أشده ضد القوى المعادية والطامعة فى المنطقة العربية كانت السلطة الحقيقية قد انتقلت الى أيدى الترك فى الدولة الاسلامية ، وان كان قد بقى ظل من سلطة واهية فى

---

(١) كرد على : المرجع السابق ، ص ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ٠

أيدى الخلفاء العباسيين في بغداد • وفي البداية دخل الترك الى الدولة الاسلامية كأفراد وعبيد ثم أخـذوا ينضمون للجيوش الاسلامية بعد تعليمهم وتدريبهم ، ثم ما لبثت مقاليد الأمور أن أصبحت فى أيديهم وقد عرف هذا العنصر باسم المماليك ، ثم تبعتهم هجرات لقبائل تركية، تحت قيادتها استقرت فى العالم الاسلامى أو على أطرافه وما لبثت هـذه القبائل أن اعتنقت الاسـلام وأصبحت من خيرة العناصر المدافعة عنه •

ومع غزو المغول للعالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت سـيطرة الترك على مقاليد الأمور فى الدولة الاسـلامية قد أصبحت حقيقة واقعة ، وفى أعقـاب معـركة عين جالوت كان الترك يسيطرون سيطرة شـاملة على المنطقة من مصر حتى الهند شرقا ، فالدولة الغزنوية فى الهند والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى والمماليك فى مصر كلهم ينتمون الى العنصر التركى • وقد أعطت هذه السيطرة للحضارة والنظم الاسلامية طابعا معينا ، كما عكست نفسها فى الفترة التالية فى الأبنية الاجتماعية والفكرية للمجتمعـات الاسـلامية • وقـد زود العنصر التركى الاسـلام بدماء جـديدة ، فدولة المـماليك فى مصر

استطاعت أن تهزم الخطر المغولى فى عين جالوت وأن تصفي الغزو الصليبى من بلاد الشام ، كما استطاع العثمانيون أن يسيروا بالاسلام مرحلة آخرى فى قلب أوربا وآن يدافعوا عن دار الاسلام لفترة تزيد على ثلاثة قرون (١) ٠

لكن الفرسان الذين حققوا النصر على الجبهة العسكرية وأعطوا للامة أعظم انتصاراتها ساهموا ـ بسبب غربتهم الحضارية عن التراث العربى الاسلامى ـ فى نكسة الفكر والحضارة الاسلامية وساعدوا على سيادة تيار الجمود والتخلف على الجبهة الحضارية (٢) ، فلم يكن هؤلاء آقل خطرا على التراث من المغول أنفسهم، فالسلطان محمود الغزنوى استخرج كتب علوم الأوائل وعلم الكلام من مكتبة الصاحب بن عباد والتى كان قد أوقفها على مدينة الرى وآمر باحراقها (٣) ٠ كما تسبب الأيوبيون فى تبديد واحدة من آكبر المكتبات الاسلامية فى العصر الوسيط وهى مكتبة القصر

---

(١) Islam and the Arab World, Edited by Bernard Lewis (London 1976), p. 16.

(٢) د٠ محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

(٢) د٠ محمد ماهر حماده : المرجع السابق ، ص ٢٠٠

الفاطمى (١) ، عندما أوكل صلاح الدين للأمير بهاء الدين قراقوش ـ الخصى التركى ـ مسئولية التصرف فى القصور الفاطمية بعد أن قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية (٥٦٧ هـ) ، وكانت هذه المكتبة تضم كتبا فى الشريعة والطب والهندسة والتاريخ والتفسير والمنطق وغير ذلك من المعارف ، وبعض كتبها كان يزيد على ستين مجلدا كما كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى ، وقد بيعت هذه المكتبة بالمزاد على مدى عشر سنوات.وأشرف على بيعها الأمير بهاء الدين قراقوش ، ويذكر أبو شامة صاحب كتاب الروضتين انها كانت « كالميراث مع أمناء الأيتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام» . (٢) كما وصف الأمير قراقوش بأنه « تركى لا خبرة له بالكتب ولا دراية له بأسفار الأدب» (٣) .

هكذا كانت بداية الترك مع الحضارة الاسلامية ، وقد استمر التدهور فى العصر العثمانى لأن العثمانيين لم يكونوا أحسن حالا في موقفهم من التراث العربى من العناصر التى سبقتهم ، فالعثمانيون قد احتفظوا

---

(١) القلقشندى : جـ ١ ، ص ٤٦٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين (القاهرة ١٢٨٧هـ) ص ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ .

بتركيتهم ومن ثم كانوا أكثر سلبية وبعدا عن التراث العربى من العناصر التركية التى سبقتهم فى حكم المنطقة العربية ، لأن تلك العناصر تعربت ، فالمماليك حكموا من خلال قاعدة عريضة من العناصر العربية الوطنية ، كما ظلت اللغة العربية هى لغة الدولة ولغة التجارة والمعاملات ، بينما تغير الوضع فى العصر العثمانى حين أصبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية للدولة والحكم (١) .

وفى نفس الوقت جدت عوامل جديدة ساعدت على استمرار التدهور فى العصر العثمانى ، من ذلك تلك العزلة التى فرضت على المنطقة بسبب الحصار الاقتصادى الذى ضربه البرتغاليون على المنطقة مع بداية القرن السادس عشر فى أعقاب كشف الطريق التجارى الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨ م) ، وما لبث هذا الحصار أن تحول الى حصار شامل شمل الفكر والحضارة بعد أن عمل العثمانيون من جانبهم على دعم هذا الاتجاه فأقفلوا الملاحة فى البحر الأحمر أمام السفن الأوربية خوفا من تهديد الأماكن الاسلامية المقدسة ، خصوصا بعد فشل حملتهم على الهند فى عام ١٥٣٨ م ،

---

(١) Islam and the Arab world, p. 16.

وراحوا يعارضون آى محاولة لاعادة الطرق العالمية الى البحر الأحمـــر وفى الحقيقة فان خوف العثمانيين من خطر الاستعمار الغربى الماثل على حدود الشرق العربى منــذ بداية القــرن الســادس عشر جعلهم يمعنون فى سياسة الحذر ، فأحاطوا الشرق الادنى بسياج منيع من العزلة ، وحالوا بينه وبين العالم الخارجى ، ولم تكن عزلة المنطقة خلال العصر العثمانى الأول (من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر) سياسية واقتصادية فحسب بل تحولت الى عزلة حضارية آيضا ، فلم يصـــل الشرق العربى خلال تلك الفترة أى عنصر من العناصر المكونة للحضارة الغربية (١) التى كانت تسير بخطى سريعة فى طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر ، بينما كانت البلاد الاسلامية قد اســتبدلت ببيــوت الحــكمة خــوانق الدراويش ، وبالتصوف الفلسفى تكايا الطرق الصوفية (٢) ٠

وكان مما ساعد على تأكيد عزلة العالم العربى خلال تلك الفترة شعور مــن الشك والريبة شــاع فى البلاد

---

(١) د٠ محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٣٩ ٠

(٢) محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٣ ٠

الاسلامية ازاء الفرنجة ابان الحروب الصليبية وفى أعقابها ٠

فاذا أضفنا الى ذلك ان الدولة العثمانية كانت دولة محافظة لا ترحب بأى تجديد فى النظم القائمة أو فى الفكر ، فأصحاب الأفكار الجديدة من الولاة لا يحوزون رضاء السلطة العثمانية بل ربما كانوا موضع سخطها (١) ، كذلك كان المصلحون يلقون الاضطهاد والتشريد ، وقصة ذلك الواعظ التركى الذى جضر الى القاهرة فى رمضان من عام ١١٢٣ هـ (١٧١١م) شاهد على ذلك ، فقد آخذ ذلك الواعظ يعظ الناس بجامع المؤيد بالقاهرة مستنكرا ما يمارسه أهل مصر من بدع عند أضرحة الأولياء مثل ايقاد الشموع والقناديل وتقبيل الأعتاب واقامة القباب وغير ذلك ، واعتبر ذلك كفرا يجب تركه ، وحمل ولاة الأمور فى القاهرة مسئولية القضاء عليه ، واجتمع عليه عدد كبير من الناس ، ويقول الجبرتى أن سلطات القاهرة قررت نفيه من المدينة وحركت جندها للقضاء على العناصر

---

(١) د٠ محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ص ١٤٢ ٠

التى التفت حوله فضربت بعضهم ونفت البعض الآخر بعد أن اعتبرتهم السلطات العثمانية متعصبين (١) .

وفى النهاية فان القلاقل والاضطرابات التى شهدتها الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى بسبب فتن الجند والصراعات بين المماليك وغيرهم من القوى المحلية تسببت فى اتلاف كثير من الكتب والمكتبات ، وتسرب ما بقى منها الى خارج المنطقة ، فالجبرتى يذكر أن معظم كتب التاريخ التى كانت معروفة فى مصر قبل عهده أصبحت « أسماء على غير مسميات » ولم يبق منها « الا بعض أجزاء مدشتة بقيت فى بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدى الصحافيين (باعة الكتب فى ذلك الوقت) وباعها القومة والمباشرون ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ثم ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب وأخذ الفرنسيس ما وجدوا الى بلادهم » (٢) .

وعلى ذلك فان هذه العوامل قد أدت الى تحول التوقف الذى بدأت ملامحه تزحف على الفكر الاسلامى

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والاخبار (مطبعة بولاق ١٢٩٧ هـ) ج ١ ، ص ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ .

منذ القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) الى جمود ثم الى تراجع وانحطاط .

ذلك انه عندما استقرت المذاهب الأربعة فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) أصبحت هى المصادر المقررة فى الشريعة الاسلامية وأصبح كل خروج عنها بدعة ، وكان من نتيجة ذلك أن طـرح باب الاجتهـاد بالتدريج ، وشيئا فشيئا حل التقليد محـل الاجتهـاد والتجديد .

وقد بدأ هذا الاتجاه عندما خشى الفقهاء المتمسكون بحرفية الدين أن يؤدى توسيع باب الاجتهـاد الى فتح الطـريق للتأويلات الفـردية (١) ذلك لأن التقليد فى البداية كان يعكس اتجاها يهدف الى تضيق شقة الخلاف بين الفقهاء حول القضايا الجـوهرية فى الاسـلام ، وأدى ذلك الاتجاه تدريجيا الى تضييق نطاق الاجتهـاد على اعتبار أن أجيالا متعاقبة من الفقهـاء يسـاندهم الاجماع قد سدوا كل الثغرات فى التشريع الاسـلامى وانه بالتالى لم تعد توجد ثغرات جوهرية تحتاج لمزيد من الاجتهاد ، ومن ثم أقفل باب الاجتهـاد فى الدين ،

---

(١) Gibb, H.A.R. : Modern Trends in Islam (New York 1972), 1972), p. 114.

وأصبح على العلماء اللاحقين أن يتقبلوا أحكام الأئمة الأربعة طبقا للمذهب الذى يأخذون به ، وأطلق على هذا الاتجاه اسم التقليد ، وأصبح على الأجيال التالية من العلماء أن يتوخوا الدقة في الأخذ بالسوابق التي استنها السلف فيما يتعلق باصدار الأحكام ، وكانت النتيجة هى توقف التفكير الاسلامى وتفشى التقليد والجمود فى علوم الشريعة وسائر العلوم الدينية ، وما لبث هذا الاتجاه أن زحف على العلوم العقلية أيضا (١) .

والحقيقة ان الحكم الاستبدادى قد شجع هذه الاتجاهات المحافظة فى الفكر الاسلامى ، فقد مال الخلفاء فى العصور المتأخرة الى تقريب اتباع الفكر المحافظ ، وأقصوا عنهم المفكرين الأحرار خاصة حين باتت الحكومة فى الدولة العباسية ذات طابع استبدادى فرسخت عقائد الدين متشحة بالتقاليد وقررت حدودها واضطهد أتباع الفكر الحر شر اضطهاد وما كاد يحل القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) حتى قضى على كل فكر مبتكر (٢) ، وكان ذلك يعنى انتصار

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث ، (القاهرة ١٩٧١) ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٢ ، ١٣ .

المدرسة النقلية على المدرسة العقلية • ومن ثم بدأت عمليات المطاردة للفكر العقلانى وللعناصر المطالبة بالتجديد ، فالمصادر تشير الى آن الفترة المتأخرة من العصر العباسى الثانى قد شهدت عمليات اضطهاد للفكر والمفكرين ، فقد أحرقت كتب ابن عبدالسلام البغدادى فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى عهد الخليفة الناصر لدين الله لا لشىء الا لأنه كان يرجع الى كتب الفلسفة ، كذلك أحرقت فى تلك الفترة بعض كتب الحسن بن الهيثم فى الفلك (١) • وفى القرن التالى سجن ابن تيمية فى دمشق حتى الموت عندما حاول الثورة على انحرافات الصوفيين فى الفكر والممارسة ، وكان وقوف علماء السنة من المذاهب الأربعة الى جانب السلطة ضد ابن تيمية يعنى ان علماء العصر قد قبلوا البدع التى أدخلها بعض المتصوفين على الاسلام وقبلوا التعايش معها ، ومن ثم تغلغلت أفكار الصوفية فى الحياة الدينية والاجتماعية فى الفترة التالية ، وقد بلغ التوافق بين علماء الدين وبين أصحاب الطرق الصوفية قمته فى القرنين السابع عشر والثامن

---

(١) د• محمد ماهر حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ •

عشر للميلاد (الحادى عشر والثانى عشر للهجرة) (١) ·

وعلى ذلك فانه ما كاد يحل القرن الثامن عشر الميلادى حتى كانت الوحدانية قد ألبست ظلالا من الخرافة وقشور الصوفية ، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء الذين يخرجون من مكان الى مكان حاملين فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، موهمين الناس بالباطل والشبهات ، يرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء التماسا للشفاعة منهم (٢) ·

برز هؤلاء كقادة للفكر كنتيجة لزحف التصوف على الحياة العقلية بعد أن انحط التصوف وتحول من فلسفة الى دروشة ·

وهكذا انحط مستوى العلماء الفكرى ليتدنى الى مستوى العامة (٣) · ووقف الجهد العلمى عند الجمع والتصنيف والتدوين والاعداد والتهذيب والتنقيح ، وتميز العصر بالحفظ والتقديس للتراث ، والتراث

---

(١) Gibb : Op. Cit., p. 24.

(٢) لوثروب ستودار : حاضر العالم الاسلامى ، مترجم (بيروت ١٩٧٣) ج ١ ، ص ٢٥٩ ·

(٣) ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (القاهرة ١٩٧١) مقال للدكتور محمد أنيس ص ص ١١١٠ ، ١١١١ ·

غير العقلاني بالذات ، ولم تتعد الاضافات نطاق الشروح والحواشي التي وضعت على المتون (١) ٠

وقد زحف هذا الجمود والتخلف على نواحي الحياة المختلفة لدرجة أن انشاء مطبعة حديثة في استانبول عام ١١٢٤ هـ (١٧١٢م) احتاج الى فتوى من شيخ الاسلام ، وتطلب ذلك تدخل السلطان العثماني شخصيا لاصدار مثل هذه الفتوى التي جاءت مشروطة بعدم طبع القرآن وكتب التفسير والحديث على هذه المطبعة لأنها كتب دينية ويخشى عليها من التحريف (٢) ٠

ان أخطر ما في هذه الفترة ان ذلك الجمود والتدهور الفكري كان مصحوبا بانحرافات واضحة في ممارسة العقيدة ، فقبور الأولياء يحج اليها وتقدم لها النذور ، ويعتقد البعض انها قادرة على النفع والضرر ، والأضرحة على امتداد العالم الاسلامي تشد اليها الرحال ويتمسح بها الناس ويطلبون منها جلب الخير ودفع الضر ، ولم يكتف الناس بذلك بل أشركوا مع الله حتى الجماد والنبات ٠ فأهل بلدة منفوحة باليمامة كانوا

---

(١) د٠ محمد عمارة : المرجع السابق ، ص ١٢ ٠

(٢) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الاسلام من القرن الأول الى القرن الرابع عشر (القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م (ص ص ٤١٦ ، ٤١٧ ٠

يعتقدون فى نخلة هناك لها قدرة على تزويج العوانس، وفى الدرعية فى نجد غار كان يحج اليه الناس بدعوى انه مقر لواحدة من الأولياء تسـمى بنت الأمير ، وفى كل بلدة من بلاد الاسلام مثل هـذه الطواغيت ، ففى مصر كانت هناك شجرة فى مسجد الحنفى بالقـاهرة يتبرك بها الناس ، وفى تكية الكلشنى نعل قديم كان الناس يزعمون انه اذا شرب منهـا المـاء يشـفى من العشق (١) .

فى هذه الظروف نشأ المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى

الجبرتى وكتابة التاريخ :

ولد عبـد الـرحمن الجبرتى فى عام ١١٦٧ هـ (١٧٥٤م) ومات فى عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٤/١٨٢٥م) على وجه التقريب (١) .

---

(١) احمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٨) ص ص ١١ ، ١٢ .

(١) يرجح د. محمد أنيس ان الجبرتى مات فى الفترة ما بين أول ربيع ثانى ، ٢٧ رمضان عام ١٢٤٠ هـ (٢٣ نوفمبر ١٨٢٤ ـ ١٤ مايو ١٨٢٥) وذلك اعتمادا على وثائق المحكمة الشرعية :

د. محمد أنيس : حقائق عن عبد الرحمن الجبرتى مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية ـ المجلة التاريخية المصرية المجلدان ٩ ، ١٠ (القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦٢) والجبرتى نسبة الى اقليم جبرت من اقليم زيلع فى بلاد الحبشة ومنه هاجرت أسرة الجبرتى فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

وعلى ذلك فالجبرتى عاش النصف الثانى من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر وهى الفترة التى شهدت انحلال النظام العثمانى المملوكى ومحاولات المماليك التمرد على السلطة العثمانية ، وكانت بداية الاضطراب اخفاق المحاولة التى قام بها على بك الكبير للقبض على زمام الأمور فى مصر (١٧٦٧ ـ ١٧٧٢ م) ، ومن ثم انفتح الطريق للصراع بين العصبيات المملوكية من أجل الانفراد بالسلطة مستغلة اختلال أمر الجند العثمانيين ، وبذلك فقد النظام أساس توازنه وشهدت مصر منذ انتهاء حكم على بك الكبير وحتى مجىء الحملة الفرنسية فترة من أسوأ فترات تاريخها اضطرابا وفسادا (١) ٠

وخلال هذا الجو المضطرب كانت هناك فئة اجتماعية استطاعت أن تحافظ على كيانها وتقاليدها سواء فى العلم أو فى السلوك الاجتماعى وتتمتع بقدر من الاستقرار النسبى ، تلك هى فئة العلماء التى كانت تتمتع بمكانة خاصة فى المجتمع المصرى ، ومن هذه الفئة الاجتماعية ينحدر عبد الرحمن الجبرتى ، فقد

---

(١) د٠ أحمد عزت عبد الكريم : الجبرتى مؤرخ مصرى على مفترق الطرق ، منشور ضمن كتاب عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث (القاهرة ١٩٧٦) ص ص ٢٠ ، ٢١ ٠

كان والده عالما من علماء الأزهر القلائل المهتمين بجوانب من العلوم الطبيعية أو التطبيقية الى جانب العلوم الدينية . وقد أخذ عنه الجبرتى الاهتمام بمثل هذه العلوم فهو لم يقنع بدراسة العلوم الدينية فحسب بل أضاف اليها طائفة من العلوم الطبيعية مثل الفلك والطب والحساب (١) . وتتلمذ على الكثيرين من علماء عصره مستفيدا من البيئة العلمية التى تربى فيها ، وقد صور الجبرتى البيئة التى نشأ فيها من خلال ترجمته لحياة والده الشيخ حسن الجبرتى . فقال «ان والده كان اذا آتاه طالب فرح به وأقبل عليه ورغبه وكرمه خصوصا اذا كان غريبا ، وربما دعاه للمجاورة عنده وصار من جملة عياله ، ومنهم من أقام عشرين عاما قياما ونوما لا يتكلف شيئا من أمر معاشه حتى غسيل ثيابه من غير تعب ولا ضجر ، وأنجب عليه كثير من علماء وقته المحققين طبقة بعد طبقة » (٢) .

الى جانب هذا فان الجبرتى قد استفاد من وضع والده الاجتماعى وعلاقاته الواسعة بأصحاب السلطة من الأمراء والمماليك ، والأجناد وكبار العلماء فى التعرف على معظم شخصيات عصره وعلى الاتجاهات

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ص ٣٩٦ .

الفكرية السائدة فى تلك الفترة مما جعله أكثر تفهما لما يدور حوله (١) ٠

ثم تتلمذ الجبرتى مع طائفة من العلماء على الشيخ مرتضى الزبيدى (نسبة الى زبيد) الذى قدم من اليمن خلال تلك الفترة بعد آن زار أقطارا عديدة من بينها الحجاز ، وكان الزبيدى من آبرز علماء العصر (٢) ٠ واليه يرجع الفضل فى اهتمام الجبرتى بكتابة التاريخ ٠

ذلك ان الشيخ محمد خليل المرادى مفتى دمشق كان فى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى يقوم بعمل ترجمة لاعلام ذلك القرن ، وطلب فى عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) من الشيخ الزبيدى آن يساعده فى ذلك بجمع تراجم المصريين والحجازيين ، وعندما بدأ الزبيدى القيام بهذا العمل طلب من تلميذه عبد الرحمن الجبرتى أن يشاركه فى جمع تراجم العلماء المصريين خصوصا وان الزبيدى كان حديث العهد بمصر ، وشرع الجبرتى فى القيام بهذا العمل وآخذ يدون تراجمه لمشايخ الأزهر وأمراء الاوجاقات والسناجق

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ٤٩ ٠

(٢) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ ٠

ومشايخ البلد واعتمد في ذلك على صديقه الشيخ اسماعيل الخشاب الذى كان من عدول المحكمة الشرعية، وكذلك اعتمد على نقوش المقابر وروايات المعمرين(١)٠

لكن الزبيدى توفي في عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠م) وبيعت متروكاته بما في ذلك الكتب « والديشتات » فاشتراها الجبرتي ومن بينها عشر كراسات كان الزبيدى قد أنجزها عن تراجم القرن الثانى عشر وسماها المعجم المختصر ٠ غير انه في أعقاب وفاة الزبيدى وصل الى الجبرتى خطاب من المرادى يطلب فيه ما جمعه الجبرتى من تراجم وما حصل عليه من الزبيدى في هذا الموضوع ، فأدرك الجبرتى من هذه الرسالة أن كتابة التراجم كانت بناء على رغبة المرادى (٢) ٠ وعندما شرع الجبرتى في العمل على ضوء هذه الحقيقة كان المرادى بدوره قد توفي في عام ١١٠٦ هـ (١٧٩١م) مما أدى الى فتور همة الجبرتى في كتابة التراجم حتى عاد من جديد الى كتابة التاريخ في شكل أكثر شمولا حيث أضاف الى كتابة التراجم المذكرات اليومية ابتداء من عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م)

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٢٣ ٠

(٢) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ٠

عند نزول قوات الحملة الفرنسية الى مصر والتى راح يدون أحداثها فى شكل يوميات ٠

ومع رحيل الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) كان الجبرتى قد قام بعملين رئيسيين فى كتابة تاريخ تلك الفترة : أولهما تراجم متناثرة لأعيان القرن الثاني عشر الهجرى ، والآخر كان تاريخا متكاملا فى شكل مذكرات لأحداث مصر فى ظل الاحتلال الفرنسى ٠ وما لبث الجبرتى أن قام بعملية ربط بين العملين مع مواصلة مذكراته لتشمل الفترة حتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) ، ومعنى هذا ان الجبرتى جمع من مصادر متعددة ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثانى عشر الهجرى حتى عام ١٢١٢هـ (١٧٩٧ م) وأخرج من هذا كله الجزءين الأول والثانى من كتابه عجائب الآثار، ثم عدل فى مظهر التقديس(١) وأخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار بعد اضافة حوادث الفترة ما بين عام ١٢١٦ هـ وعام ١٢٢٠ هـ ،

---

(١) كان الجبرتى قد أخرج الجزء الخاص بفترة الحملة الفرنسية تحت عنوان « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ثم أجرى عليه بعض التعديلات بطريقة جعلته أكثر موضوعية مع اضافة أحداث الفترة من ١٢١٦ ــ ١٢٢٠ ٠

ثم آخذ يدون مذكراته للجزء الرابع الذى يشمل تاريخ مصر من عام ١٢٢١ هـ الى ١٢٣٦ هـ (١) ٠

وفى عجائب الآثار تعرض الجبرتى للعـديد من قضـايا عصره ويهمنا هنـا رؤيتـه للحيـاة الفـكرية والدينية ٠

---

(١) ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، جـ ٣ ص ص ١١٣٠ ، ١١٣١ ٠

الفصل الثانى

أزمة الحياة الفكرية فى كتابات الجبرتى

أزمة الحياة الفكرية فى كتابات الجبرتى

فى تناوله للحياة الفكرية والدينية فى مصر تعرض الجبرتى لظاهرتين رئيسيتين أولهما : تدهور الحياة الفكرية بشقيها من العلوم الدينية والعلوم العقلية ، أما الظاهرة الثانية فهى الانحرافات التى ظهرت فى الحياة الدينية وممارسة العقيدة وهى انحرافات تناولها الجبرتى خلال حديثه عن الحركة الصوفية المتأخرة وما لحق بها من بدع وخرافات ·

وأهمية ما كتبه الجبرتى فى هذا المجال أن المجتمع المصرى فى ذلك الوقت لم يكن يختلف كثيرا عن غيره من المجتمعات الاسلامية بسبب وحدة الفكر والثقافة الناتجة من وحدة الحضارة الاسلامية ، ولأن العثمانيين

حافظوا على الوحدة السياسية للمنطقة حتى نهاية القرن الثامن عشر ٠

وفيما يتعلق بالظاهرة الأولى وهى تدهور الحياة الفكرية نستطيع أن نستخلص مما كتبه الجبرتى حول هذا الموضوع أربعة أسباب ساهمت فى هذا التدهور : الأول سبب عام ذكره الجبرتى فى معرض حديثه عن أسباب تدهور علم التاريخ وهى كثرة الفتن والقلاقل فى عصره مما أدى الى اختفاء كثير من الكتب التى كانت معروفة من قبل كما سبق أن أشرنا (١) ٠

السبب الثانى يتصل بنوعية العلماء خلال تلك الفترة وتكالب بعضهم على الدنيا ، يتضح ذلك مما كتبه الجبرتى من ترجمات لعلماء عصره ، فهو يقول مثلا عند ترجمته لحياة الشيخ عبد الله الشرقاوى (ت١٢٢٧هـ/ ١٨١٢ م) « واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها » وهو يؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى عند ترجمته لحياة الشيخ محمد المهدى الذى توفى عام ١٢٣٠هـ (١٨١٥) فالجبرتى يقول : « ٠٠ وزادت ثروته ورغبته وسعيه فى أسباب تحصيل الدنيا ولما فى الشركات وكثير من

(١) عجائب الآثار جـ ١ ، ص ٦ ٠

(٢) عجائب الآثار جـ ٤ ، ص ١٦١ ، ص ٢٢٣ ٠

الأشياء مثل الكتان والقطن وغير ذلك من الأصناف ٠ والتزم بعدة حصص بالجيرة مثل شابور وخلافها بالمنوفية والجيزة والغربية ابتنى دارا عظيمة بالأزبكية بناحية الرويعى» ٠

وهكذا فان بعض العلماء كانت لهم أنشطة اقتصادية متنوعة مثل نظارة الوقف وحيازة الالتزامات والعمل بالتجارة وهى أنشطة شغلتهم عن متابعة العلم والبحث ، مما جعل الجبرتى يطلق عليهم اسم « مشايخ الوقت» (١) ٠

أما السبب الثانى لتدهور الحياة الفكرية فهو يتعلق بظاهرة توريث الوظائف العلمية أى وراثة الابن لمنصب والده حتى ولو لم تكن له قدراته العلمية وما يؤهله لذلك ، وهى ظاهرة تسللت للحياة العلمية من نظام طوائف الحرف حين كان الابن يرث حرفة أبيه ، ولأن التعليم فى ذلك الوقت انحدر الى مستوى الحرفة فقد أصبحت هذه الظاهرة معترفا بها فى أوساط العلماء ٠ واذا حدث ولم يكن فى بيت العالم المتوفى من تعلم فى الأزهر دفع العلماء بواحد من آل بيته للتعلم والارتفاع

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ١٤٨ ٠

الى مستوى العلماء (١) • ومن ذلك أنه لما توفى الشيخ أحمد الجوهرى (ت ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م) فرضـوا على أخيه عبد الفتاح أن يخلفه ، ويقول الجبرتى انه «لم يكن معنيا بالعلم ولم يلبس زى الفقهاء وكان يعانى التجارة (أى يعمل بها) ويشارك ويضارب ويحاسب ويكاتب . فلما مات أخوه الأكبر الشيخ أحمد وامتنع أخوه الأصغر الشيخ محمد من التصدر للاقراء فى محله اتفق الحـال على تقدم المترجم حفاظا على الناموس وبقـاء لصـورة العلم الموروث فعند ذلك تزيا بزى الفقهاء ولبس التاج والفراجة الواسعة وأقبل على مطالعة العلم وخالط أهله وصـار يطالع ويذاكر وقرأ دروس الحـديث بالمشـهد الحسينى فى رمضـان مع قلة بضـاعته وذلك بمعونة الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد الفرماوى» (٢) •

أما السبب الآخير فهو موقف كبار العلماء الرسميين المناهض لأصحاب الأفكار الجديدة المطالبة بالاصلاح ، فقد ذكر الجبرتى عند حديثه عن الواعظ التركى الذى دعا الى ترك البـدع والممارسـات الخاطئة فى العقيدة والأفكار السائدة حول كرامات الأولياء ، ذكر الجبرتى أن كبار علماء الأزهر ممن يشغلون الوظائف الرسمية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠٢ •

(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ١٦٦ •

هم الذين أفتوا ببطلان كلام ذلك الواعظ وحرضوا السلطة على طرده وتشتيت أتباعه (١) ٠

وقد عرض الجبرتي لكثير من مظاهر الجمود والتخلف الفكرى من خلال عرضه لنماذج من علماء عصره خصوصا المتصوفة منهم ، مستشهدا فى أكثر من موضع بشعر المعاصرين من أمثال الشيخ حسن البدرى الحجازى الذى ترجم له الجبرتي ووصفه بأنه كان ناقدا لأوضاع عصره (٢) ٠ وقد أرجع الجبرتي فساد الأخلاق العامة والتدهور العام الذى أصاب الحياة الفكرية فى سائر البلاد الى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ والذين لايعرفون حتى مجرد التمييز بين الحلال والحرام (٣) ٠ وقد ذكر أن أحد هؤلاء العلماء الذين دأبوا على الفتوى بغير علم قد طلق امرأة من زوجها الذى غاب عنها لفترة وزوجها من آخر على الرغم من أن الزوج كان قد ترك لها مايكفيها ، فلما حضر الزوج الأول ووجد زوجته قد تزوجت من غيره قدم شكوى للأمير

---

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ص ٤٨ ، ٤٩ ٠

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٨١ ٠

(٣) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٨٠ ٠

يوسف الكبير (ت ١١٩١ هـ/١٧٧٧ م) الذى أمر بحبس ذلك العالم (١) ٠

وقد أوضح الجبرتي الى أى مدى تدهور مستوى علماء الدين خلال حديثه عن ذلك الواعظ التركى الذى رفض فكرة أن يكون للأولياء كرامات بعد وفاتهم فيقول الجبرتي ان بعض الناس «عندما سمعوا ذلك القول وذهبوا الى العلماء بالأزهر وأخبروهم بقول ذلك الواعظ كتبوا فتوى وأجاب عليها الشيخ أحمد النفراوى والشيخ أحمد الخليفى بأن كرامات الأولياء لاتنقطع بالموت وأن انكاره (الواعظ) اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لايجوز ويجب على الحاكم زجره» (٢) ٠

ويفهم مما كتبه الجبرتي أن تخلف العلوم العقلية كان أكثر وضوحا وقد عبر عن هذه الحقيقة فى ذلك الحوار الذى أورده بين علماء الأزهر وبين أحمد باشا الذى عين واليا على مصر فى عام ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) وكان من المهتمين بالعلوم الرياضية ٠ فعند وصوله الى مصر حضرت جمهرة من علماء الأزهر على رأسهم الشيخ

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٨ ٠

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٨ ٠

عبد الله الشبراوى شيخ الأزهــر للترحيب به فسألهم الوالى عن العلوم الرياضية لكنهم أحجموا عن الاجابة وفى جلسة تالية اجتمع الوالى بالشيخ الشبراوى وقال له «المســموع عنــدنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، فقال الشيخ الشبراوى هى يامولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال الوالى .. وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العــلوم فلم أجد عندكم منها شيئا وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول . والوسائل ونبذتم المقاصد فقال نحن لسنا أعظم علمائها وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضــاء حوائجهم عنــد أرباب الدولة والحكام وغالب أهــل الأزهر لايشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار فقال له وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة فى أوقات الصوم والأهلة وغير ذلك فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم

والتشكيل والأمور العطاردية وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك (١) ٠

ويذكر الجبرتي بعد ذلك أن الوالى سأل عن البعض الذى لديه علم بالعلوم العقلية فدلوه على والده الشيخ حسن الجبرتي ٠

تلك الصورة توضح الى أى حد تدهورت العلوم العقلية ٠

ومن بين العلوم التى تدهورت فى القرن الثامن عشر والتى أشار اليها الجبرتي علم التاريخ ، ويرجع الجبرتي أسباب تدهور هذا العلم الى عدم اهتمام أبناء عصره بدراسة التاريخ ونظرتهم الهابطة الى ذلك النوع من المعرفة ، فهو يقول «ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانسانى تعتنى بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا من بعد خلف الى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين ٠ وقالوا أساطير الأولين» ويستطرد الجبرتي فيقول «ولعمرى انهم المعذورون وبالأهم مشغولون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة فى مثل هذه المنقبة فان الزمان قد

---

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ص ١٨٦ ، ١٨٧ ٠

انعكست أحواله وانخرمت قواعده في الحساب فلا تضبط وقائعه في دفتر ولا كتاب واشغال الوقت في غير فائدة ضياع وما مضى ليس له استرجاع الا آن يكون مثل الحقير منزويا فى زوايا الخمول والاهمال» (١) .

أما الظاهرة الأخرى التى تناولهاالجبرتي فى معرض حديثه عن الحياة الفكرية والدينية فهى ظاهرة الانحراف فى ممارسة العقيدة وقد تحدث الجبرتى عن هذه الظاهرة موضحا آن الخطر الذى تهدد الحياة الدينية فى عهده هو الدور الذى لعبه أدعياء التصوف الذين اتخذوا من التصوف مبررا للهرب من الحياة الجادة ووجدوا فيه وسيلة للتغرير بالعامة فكثر الأدعياء الذين لبسوا مسوح الصوفية ، ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس يروجون الأباطيل ويستخدمون مصطلحات يعجز الرجل العادى عن فهمها بدعوى أنها أسرار لا يرقى اليها الا الخاصة ولا دخل للعقل فى ادراكها ، وحرص الجبرتى على أن يفرق فى الصورة التى رسمها بين آولئك المنحرفين وبين الزاهدين الحقيقيين وذلك على نحو ماشهده بنفسه من أفعال كل من الفريقين ، وجاءت الصورة التى رسمها للعناصر المنحرفة دقيقة التفاصيل فأسهب فى وصف

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٥ .

مواكب أولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الناس من شتى الطبقات رجالا ونساء وأطفالا (١) ٠

ويذكر الجبرتى أن بعضهم كان يسير عريانا فى الطرقات يتبعهم الأطفال فهو يقول «ان السيد على البكرى (ت ١٢٠٧ هـ/١٧٨٢ م) كان فى بداية حياته يمشى فى الطرقات عريانا ويخلط فى كلامه وبيده نبوت طويل فى أغلب أوقاته ٠٠ وكان يحلق لحيته وللناس به اعتقاد عظيم وينصتون الى تخيلاته ويوجهون ألفاظه ويؤولونها على حسب أغراضهم ومقتضيات أحوالهم ووقائعهم وكان له أخ من مساتير الناس فحجر عليه ومنعه من الخروج وألبسه ثيابا ورغب الناس فى زيارته وذكر مكاشفاته وخوارق كراماته فأقبل الناس عليه من كل ناحية وترددوا لزيارته من كل جهة وأتوا اليه بالهدايا والنذور وجروا على عوائدهم بالتقليد وازدحم عليه الخلائق وخصوصا النساء فراج بذلك أمر آخيه واتسعت دنياه ونصبه شبكة لصيده ومنعه من حلق لحيته فنبتت وعظمت وسمن بدنه وعظم جسمه من كثرة الأكل والراحة وقد كان قبل ذلك عريانا شقيانا يبيت غالب

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، مقال بقلم الدكتور ابراهيم العدوى ، ص ٧٦ ٠

لياليه بالجوع طاويا» •• ويقول انه بعد موته «أقام الناس على قبره مقصورة واجتمعوا عند مدفنه في ليال وميعادات وقراء ومنشدين وتزدحم عنده آصناف الخلائق ويختلط النساء بالرجال» (١) •

وقد ذكر الجبرتى نموذجا آخر صارخا لهذا النوع من المتصوفة فيما رواه عن الشيخ صادومة الذى قال عنه الجبرتى انه « كان له باع طويل فى الروحانيات وتحريك الجمادات والسيميات ويكلم الجن ويخاطبهم مشافهة ويظهرهم للعيان » ويقول « كما آخبرنى من شاهده وللناس اختلاف فى شأنه » •

وأوضح الجبرتى خطورة هؤلاء الناس وذلك لأنهم استطاعوا أن يجتذبوا اليهم نفرا من كبار الفقهاء جمعتهم بهم مصلحة مشتركة وكان ذلك النفر من الفقهاء يروج لمثل هؤلاء المتصوفة وكرامتهم ، فقد ذكر الجبرتى ان الشيخ حسن الكفراوى الذى تولى منصب افتاء الشافعية كان من اتباع الشيخ صادومة « وله به التئام وعشرة ومحبة آكيدة واعتقاد عظيم ويخبر عنه آنه من الأولياء وأرباب الأحوال والمكاشفات بل يقول انه هو الفرد الجامع ونوه بشأنه عند الأمراء خصوصا محمد

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ •

بك أبو الذهب فراج حال كل منهما بالآخر » . ويقول الجبرتى « انه حـدث آن اختلى الأمير يوسـف الـكبير بمحظيته فرأى عـلى سـوءتها كتـابة فسألها عن ذلك وتهددها بالقتل فأخبرته ان المرآة الفلانية ذهبت بهـا الى هذا الشيخ وهـو الذى كتب لهـا ذلك ليحببهـا الى سيدها فنزل فى الحال وأرسـل فقبض عـلى الشـيخ صـادومة وأمر بقتله والقـائه فى البحـر ففعلوا به ذلك » (١) .

وأمام هذه الدرجة من التدهور كان طبيعيا آن يظهر الكثير من أدعياء التصوف ، فالجبرتى يذكر فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١١١٠ هـ انه « ظهر رجل من أهل الفيوم يدعى بالعليمى قدم الى القاهرة وأقام بظهر القهوة المواجهة لسبيل المـؤمن فاجتمع عليـه كثير من العوام وادعوا فيه الولاية وأقبل عليه النـاس من كل جهة واختلط النسـاء بالرجال وكان يحصـل بسـببه مفاسد عظيمة فقامت عليه العساكر وقتلوه » (٢) .

وأصبحت هذه الظاهرة تتكرر فالجبرتى يذكر فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م)

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ١٧ .
(٢) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ص ٢٨ ، ٢٩ .

انه ظهر «رجل بناحية بنها العسل يدعى بالشيخ سليمان فأقام مدة فى عشة بالغيط واعتقد فيه الناس الولاية والسلوك والجذب فاجتمع اليه الكثير من آهل القرى وأكثرهم الأحداث ونصبوا له خيمة؛ وآقبل عليه آهل القرى بالنذور والهدايا وصار يكتب الى النواحى أوراقا يستدعى منهم القمح والدقيق ويرسلها مع المريدين ٠٠ وصار له عدة اخصاص واجتمع لديه من المردان نحو المائة وستين آمرد وغالبهم آولاد مشايخ البلاد ٠٠ وعمل للمردان عقودا من الخرز الملون فى أعناقهم ولبعضهم آقراطا فى آذانهم » (١) ٠

والحركة الصوفية من هذا المنظور آصبحت فى بعض جوانبها ظاهرة اجتماعية واقتصادية آكثر منها ظاهرة دينية آو فلسفية ، وآصبحت تتصل بالحياة الاقتصادية والسياسية ، فهى وسيلة للهرب من ظلم الحكام وطغيانهم ، وهرب الفلاحون من ظلم الملتزمين وحياة الضرائب ، ثم هى وسيلة للتغلب على مشكلة الجوع فى سنوات القحط (٢) ٠ لقد آلقت الحركة

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ص ٦٣ ، ١٦٤ ٠

(٢) د٠ السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى (١٥١٧ ـ ١٨٨٢م) ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٦ ٠

الصوفية بصورتها هذه ظلا كثيفا على الحياة الدينية والفكرية ، فظاهرة الأضرحة والموالد وما كان يحدث فيها من بدع وانحرافات قد ارتبطت الى حد كبير بهذا النوع من الصوفية المتأخرة ، وقد ربط الجبرتى بين الظاهرتين بشكل واضح . فهو يذكر عند ترجمته لحياة الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام أحد مشايخ الطرق الصوفية الذى توفى عام ١١٧٢ هـ (١٧٥٨م) انه عقب وفاته حدث سيل عظيم هدم قبره وبعض القبور المجاورة « فاجتمع أولاده ومريدوه وبنوا له قبرا فى الملوة وعملوا له مقصورة ومقاما من داخلها وعليه عمامة كبيرة وصيروه مزارا عظيما يقصد للزيارة ويختلط به الرجال والنساء .. ثم انهم ابتدعوا له موسما وعيدا فى كل سنة يدعون اليه الناس من البلاد القبلية والبحرية فينصبون خياما كثيرة ومطابخ وقهاوى ويجتمع العالم الأكبر من اخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحين الأرياف وأرباب الملاهى والملاعيب والغوازى البغايا والقرادين والحواة » . ويستطرد الجبرتى فيصور ما كان يحدث فى هذه الموالد من انحرافات وخروج عن مبادىء الدين والأخلاق من جراء وجود مثل هذا الحشد من اخلاط الناس فيقول

«فيملأون الصحراء والبستان فيطأون القبور ويوقدون عليها النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون الطبول والزمور ليلا ونهارا ويستمر ذلك نحو عشرة أيام وأكثر » (١) .

ويصور الجبرتى فى موضع آخر كيف نشأ مولد الحسين فى القاهرة فيقول ان الذى ابتدعه السيّد بدوى بن فتيح مباشر وقف المشهد الحسينى بعد أن أصيب بمرض فنذر آن يقيم هذا المولد لو شفاه الله فلما تحسنت صحته بعض الشىء شرع فى اقامة هذا المولد « وأوقد فى المسجد والقبة قناديل وبعض الشموع ورتب فقهاء يقرءون القرآن بالنهار ومدارسة وآخرين يقرءون بالليل دلائل الخيرات للجزولى ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفى والسمان والعربى والعيسوية » . ويصف الجبرتى أوضاع المسجد الحسينى وانتهاك حرمته فى ظروف هذا المولد فيقول مستطردا .. « هذا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام وتحلقهم (جلوسهم فى شكل حلقات) بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

والأضاحيك والتفت الى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعى خلفهم والافتنان بهم ورمى قشــور اللب والمكسرات والمأكولات فى المسجد وطواف البـاعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاء المـاء فيصير المسـجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفـوش ملتحقا بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة الا بالله » (١) ٠

ويستطرد الجبرتى فيصور مواكب الطرق الصوفية فى مثل هذه المـوالد وما تضمه من اخـلاط الناس من خلال حديثه عن مولد الحسين فى شعبان عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فيقول « ثم زاد الحـال على ذلك بقـدوم جماعة الاشاير (كان لكل طريقة صوفية اشارة معينة) من الحارات القريبـة والبعيـدة وبين أيديهم منـاور القناديل والجـوامع العظيمـة التى تحملهـا الـرجال والشموع والطبول والزمور ويتكلمـون بكلام محرف يظنون انه ذكر وتوسلات يثابون عليها وينسـبون من يلومهم أو يعترضهم الى الاعتزال والخـروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحـرف السـافلة » (٢) وينبه الجبرتى الى أن الفرنسيين قد شجعوا مثل هذه البـدع

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ص ٣٩ ، ٤٠ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠

حتى ينصرف الناس عن التفكير فى الأوضاع السياسية والاقتصادية الناجمة عن الاحتلال الفرنسى وحصـــار الأسطول الانجليزى للشواطىء المصرية فيقول « وانقضى شهر شعبان وحوادثه فمنها ان آهل مصر جروا عـلى عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكمشوا عن بعضها واحتشـوها خوفا من الفرنسيس فلما تدرجوا فيهـــا وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا اليها وانهمــكوا فى عمل موالد الأضرحة التى يرون فرضيتها وانهــا قربة تنجيهم بزعم من المهــالك وتقربهم الى الله زلفى فى المسالك فرمحوا فى غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها وانقطاع الأخبــار ومنع الجــالب (الــوارد) ووقوف الانجليز فى البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلــوبة من البحــر الــرومى وانقطــع آثر كثير من آرباب الصــنائع التى كسدت » (١) ٠

أما الشيخ عبــد الله الشرقاوى الذى كان شــيخا للازهر فيقول الجبرتى ان آهله ابتدعوا له مولدا عقب وفاته (١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) « كتبوا بذلك فرمانا

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٤٣ ٠

من الباشا ونادى به تابع الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد وكتبوا أوراقا ورسائل للاعيان وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور وذبحوا ذبائح وأحضروا طباخين وفراشين ومدوا اسمطة بها أنواع الأطعمة والحلاوات والمحمرات والخشافات لمن حضر من الفقهاء والمشايخ والأعيان وأرباب الاشاير والبدع ونصبوا قبالة تلك القبة صوارى علقوا بها قناديل وبيارق وشراريب حمرا وصفرا يلوحها الريح واجتمع حول ذلك من غوغاء الناس وعملوا قهاوى وبياعين الحلو أو المخللات والترمس المملح والفول المقلى ودهسوا ما بتلك البقعة من قبور الأموات وأوقدوا النيران وصبوا عليها القاذورات مع ما يلحقهم من البول والغائط » (١) .

ان رؤية الجبرتى للطرق الصوفية وما وصلت اليه خلال عصره تظهر من خلال وصفه لها بالطرق الشيطانية عند حديثه عن محاولة عثمان آغا اعادة بناء مشهد زيد ابن على زين العابدين بن الحسين فى عام ١٢٥٥ هـ (١٨١٠ م) فهو يقول « ومن الحوادث البدعية من هذا

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ١٦٣ .

القبيل ان عثمان آغا المتولى اغات مستحفظان سولت له نفسه عمارة مشهد الرأس وهو رأس زين بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن آبى طالب رضى الله عنهم ويعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين وبذلك اشتهر فلما كانت الحوادث ومجيء الفرنسيس أهملوا ذلك وتخرب المشهد وآهيلت عليه الأتربة فاجتهد عثمان أغا المذكور فى تعمير ذلك وزخرفه، وبيضه وعمل به سترا وتاجا ليوضعا على المقام وآرسل فنادى على أهل الطرق الشيطانية المعروفة بالاشاير وهم السوقة . وأرباب الحرف المرذولة الذين ينسبون آنفسهم لأرباب الضرائح المشهورين كالاحمدية والرفاعية والقادرية والبراهمية ونحو ذلك .. ثم انهم اجتمعوا فى يوم الأحد خامس عشرينه بأنواع من الطبول والزمامير والبيارق والاعلام .. ويصحبهم الكثير من الفقهاء والمتعممين والاغا المذكور راكب معهم . » (١) .

وقد أوضح الجبرتى ان آخطر ما فى هذه الظواهر المرضية آنها لم تكن موضع استنكار علماء عصره بل على العكس من ذلك كانت موضع رضاهم ومشاركتهم فقد كان يحضر هذه الموالد الكثير من العلماء والفقهاء

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ .

ويقتدى بهم في ذلك الأمراء وعلية القوم ٠ ففى حديثه عن مولد الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام الذى سبق أن أشرنا اليه ــ يقــول الجبرتى « ٠٠ ويجتمع لذلك أيضا الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياما أيضا ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير انكار بل يعتقدون ان ذلك قــربة وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلوه فالله يتولى هدانا أجمعين » (١) ٠

وقد أورد الجبرتى أبياتا عديدة من شــعر الشيخ حسن البدرى (ت ١١٣٤ هـ / ١٧٢١ م) ينتقد فيها مثل هذه الظواهر منها قوله (٢) :

ليتنا لم نعش الى آن رأينا
كل ذى جنــة لدى الناس قطبــا

علماؤهم به يلوذون بل قــد
اتخذوه من دون ذى العرش ربا

واذا مــات يجعلــوه مــزارا
وله يهرعون عجمــا وعــربا

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٢١ ٠
(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ص ٧٨ ، ٧٩ ٠

بعضهم قبل الضريح وبعض

عقب الباب قتلوه وتربا

هكذا المشركون تفعل

مع أصنامهم تبتغى بذلك قربا

وموقف الجبرتى الناقد لهذه الظواهر ينبع من اعتبارين أولهما ان الجبرتى كان عقلانيا الى حد ما ، وهذه العقلانية التى كان يصطنعها فى دراسة العلوم الوضعية كانت تنأى به عن الاعتقاد فى مثل هذه الممارسات والأفكار الخاطئة التى كانت سائدة فى عصره ، والآخر هو ان الجبرتى كان سنيا متمسكا بمبادىء السنة بعد أن درس الفقه فى الأزهر وفق قواعد المذهب الحنفى ٠ (١) ومن هذا المنظور نستطيع أن نفسر رؤية الجبرتى لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب ٠

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، دراسات وبحوث ، ص ٢٣ ٠

الفصل الثالث

الجبرتى والحركة السلفية

الجبرتى والحركة السلفية

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته الاصلاحية :

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى عام ١١١٥ هـ (١٧٠٠ م) فى بلدة العينية من اقليم نجد فى أسرة من العلماء وكان والده قاضيا للبلدة وعن أسلافه وعلماء بلده تلقى تعليمه الدينى وفق قواعد المذهب الحنبلى الذى كان منتشرا فى نجد ، وفى هذه البيئة البسيطة تعلم فقه الاسلام فى أصوله الواضحة والبسيطة كما وعيها السلف الصالح (١) وخلال تجواله فى مناطق

---

(١) عن نسب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأته الأولى انظر :
ــ عثمان بن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، بيروت ١٣٨٧ هـ ، جـ ١ ص ١٦ ، ١٧ .
أيضا : أحمد عبد الغفور عطار ، محمد بن عبد الوهاب ، بيروت ١٣٩٢هـ . ص ٢٧ ، ٢٨ .

متعددة من العالم الاسلامى لطلب العلم رآى كل هـذه الانحرافات التى أشرنا اليهـا ، ورآى المسـلمين وقد انحـدروا الى حضيض من الشرك لا يمـكن قبـوله أو السكوت عليه ، وأدرك أن مثل هذه النفوس التى تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تأمر بمعروف أو تنهى عن منكر أو تـواجه حاكما ظالما ، وأدرك ان ذلك هو السبب الرئيسى فى آزمة الحـكم خـلال تلك الفترة ، فقد ذل النـاس للحـكام بعد أن ذلوا للخشب والحجر والشجر (١) . وكانت تلك البـدع واشرافات لا تتفق مع أفكاره عن الاسلام السـلفى الذى تعلمه ، وكان هاديه في موقفه ذلك التراث الفكرى الذى خلفه مجموعة من العلماء الأفذاذ من أمثال احمد بن حنبـل ١٦٤ ـ ٢٤١ هـ / ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) وابن تيميـة (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م)وابن قيـم الجوزيه (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ / ١٣٩٢ ـ ١٣٥٠ م) ، ومن هنا كان التحدى الذى واجهه محمد بن عبدالوهاب وهو ما طرأ على الاسلام من بدع ومحدثات واضافات سواء كانت هذه المحدثات وليدة الجهل والخرافة أو ثمرة

---

(١) أحمد أمين ، المرجع السابق ، ص ١٠ ـ ١٥ .

الاحتكاك بالمجتمعات المتقــدمة ذات الحيــاة الفــكرية المعقدة أو مزيجا من المصــدرين معا (١) ٠

وأدرك ان الشرك قد تسرب الى عقائد المســلمين وانهم أصبحوا يتخذون من الوسائل والوسائط زلفى يتقربون بها الى الله ، وبذلك عادوا الى موقف الجاهلية الأولى عندما كان المشركون يتخذون من الأوثان وسائط تقربهم الى الله ٠ فحكم محمد بن عبدالوهاب على هؤلاء بالشرك ذلك لأنهم وان وحدوا الله ـ من حيث ألوهيته ـ الا انهم أشركوا فى العبادة عن طريق الوســائل التى اتخذوها لتقربهم الى الله (٢) ، وكلها آمــور تتعارض مع جوهر العقيدة وهو التوحيد أى اخلاص العبادة لله وحده ٠ ومن ثم ركز ابن عبد الوهاب جهده الفــكرى على تنقية عقيــدة التــوحيد مما شــابها من شــوائب وانحرافات بعد عصر السلف ، والتوحيد عند الشــيخ محمد بن عبد الوهاب يعنى أيضا وحدة مصدر التشريع وهو الكتاب والسنة فلا مصدر فى التشريع الاســلامى الا كتاب الله وسنة رسوله ٠

---

(١) د٠ محمد عمارة ، المرجع السابق ، ص ٢٥ ٠

(٢) محمد بن عبد الوهاب : مجموعة التوحيد ، رسالة هدية طيبة (المكتبة السلفية بالقاهرة) ص ١٥٦ ٠

أما الركن الثـانى فى دعـوة الشـيخ محمـد بن عبد الوهاب فهو الاجتهاد بشرط عدم مخالفته لنصوص القـرآن والسـنة الصحيحة ، وكل مسـتوف لشروط الاجتهاد من علماء المسلمين يمكنه أن يجتهـد بل يجب عليه أن يجتهد ، ذلك لأن قفل باب الاجتهاد كان أحد الـكوارث التى حلت بالمسـلمين وجعلتهم مقلـدين جامدين (١) .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بهذه الصورة جديدة على الفكر الاسلامى فهى امتداد لمذهب ابن حنبـل وابن تيميـة وان كان الشـيخ محمد بن عبد الوهاب لم يتبع مذهب أحمـد بن حنبل فى جميع الأحوال شأنه فى ذلك شأن ابن تيمية الذى تأثر به ابن عبد الوهاب كثيرا ، فابن تيمية كان يقـول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة فى حدود الكتاب وصحيح السنة ، وعنـه أخـذ ابن عبـد الوهاب الاجتهـاد والدعوة للاصلاح (٢) .

---

(١) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ص ١٢ ، ١٣ ، أيضا احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ ـ ١٢٣٣ هـ ١٧٤٥ ـ ١٨١٨ م ـ القاهرة ١٩٦٩) ص ٣٠ .
أيضا أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٣ .

لكن آهمية الشيخ محمد بن عبد الوهاب تكمن فى انه لم يكن مجرد داعية آو صاحب فكر يعلنه ليستقر فى متاحف التراث ولكنه كان يدرك منذ اللحظة الأولى أهمية السلطة آو الدولة فى حماية الفكر ووضع الدعوة موضع التطبيق والممارسة ، ومن ثم كانت مغادرته لبلدته حريملاء التى بدأ فيها دعوته الى العيينة مستعينا بحاكمها ابن معمر لخدمة دعوة التوحيد غير ان ابن معمر لم يستمر فى تأييد الشيخ حتى نهاية الطريق ، فقد تراجع أول صدام بالقوى المعادية للدعوة (١) ، فغادر الشيخ ابن عبد الوهاب العيينية قاصدا الدرعية حيث لقى أميرها محمد بن سعود الذى رحب به واستجاب لدعوته وكان الحوار الذى دار بينهما فى ذلك اللقاء التاريخى عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م) بمثابة تعاقد على تأسيس دولة جديدة فى شبه جزيرة العرب على أسس من الاسلام الصحيح (٢) وعن طريق ذلك التحالف بين العقيدة والسلطة استطاعت الدعوة آن تتجاوز حدود

---

(١) ابن بشر : المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ٢١ ٠

ـ احمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ص ٥٥ ، ٥٦ ، ايضا ابن بشر : المرجع السابق ، ص ص ٢٠ ، ٢١ ٠

(٢) أورد ابن بشر نص الحوار الذى دار بين الامير محمد بن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٢٢ ٠

الدرعية واستجابت لها نجد والمناطق المتاخمة لهـا ٠ وخلال هذه العملية النضالية كان الشيخ محمود النشاط فهـو يكاتب أهل البـلاد الأخـرى داعيـا ، ويتصـل بالحجاج فى موسم الحج ، ويبت فى الخصـومات وفى العلاقات السياسية وفى المعاهدات بين الحكام باعتبار انه أعلم بالدين والأحكام (١) ٠

ومنذ ذلك التاريخ شهدت شبه الجزيرة العربيـة قيام حركة اصلاحية تتحدى فكر العصور الوسطى وتنكر خرافتهـا وتتبنى مبادئهـا ٠ دولة ما لبثت ان راحت تتحدى سلطة خلفاء آل عثمان بعـد آن سـيطرت على الحجاز ودخلت قواتها المدينة المنورة فى عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥ م وهدمت قباب قبورها ومزاراتها ، كما خضعت لها مكة فى العام التالى حيث حج الأمير سعود فى نفس العام وأعلن انكار وجود آى سلطة للخليفة العثمانى على الحرمين الشريفين ، وآعاد المحامل القـادمة من الشـام ومصر والعراق واستانبول لما يصاحبها من بدع ٠

ولم تكتف الدولة الجديدة بهذا بل راحت تهـدد العراق ، ففى عام ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) دخلت قوات

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار : المرجع السابق ، ص ص ٧٠ ، ٨٧ ٠

آل سعود كربلاء وهدمت ما بهـا من قباب ومزارات ، ووصل آل سعود في بعض غزواتهم الى مشارف بغداد ٠ وعلى ذلك ففى مطلع القرن التاسع عشر كان نفوذ آل سعود قد شمل الحجاز وأزال النفوذ العثمانى من الحرمين الشريفين ، وآدركت الدولة العثمانية انه لم يعد فى مقدور ولاتها في العراق والشام التصدى لهذا الخطر الذى أصبح يهدد البلدين ، ولذلك اتجهت آنظارها الى محمد على واليها على مصر ، الذى استجاب لذلك ابتداء من عام ١٨١١ (١) ٠

وقد تمكن محمد على من تحقيق رغبـة السـلطان العثمانى على الدولة السعودية بعد حرب ضارية استمرت سبع سنوات (١٢٢٦ ـ ١٢٣٣هـ / ١٨١١ ـ ١٨١٨م) قادها كل من محمد على وابنيه طوسون وابراهيم(٢) ٠ واذا كانت الدولة التى آقامها الموحدون قد ضربت على المستوى السياسى الا آن الدعوة نجحت فى ثورتها عـلى الشوائب والانحرافات التى لحقت بقضية التـوحيد ،

---

(١) د٠ عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٨٤ ٠

(٢) د٠ السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨) القاهرة ١٩٧٠) القاهرة ١٩٧٠ ، ص ص ١٠٥ ـ ١٠٧ ٠

ومن ثم فتح الطريق للثورة على الجمود والتخلف الذى خلفته العصور الوسطى ، ذلك ان حركة الاصلاح الدينى التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب برفضها للأفكار الموروثة من تراث العصور الوسطى قد فتحت الطريق لنقد هذا التراث وأصبحت هى الأساس الذى انطلقت منه حركات الاصلاح الدينى فى القرن التاسع عشر (١) .

ومن الطبيعى آن تلقى هذه الدعوة اهتمام عبد الرحمن الجبرتى باعتبارها واحدة من أبرز قضايا عصره .

الجبرتى والصراع فى جزيرة العرب :

لم ترد فى كتابات الجبرتى أية اشارات عن الدعوة السلفية قبل عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) ويرجع ذلك الى عدد من الأسباب فى رأيى :

١ ـ ان الجبرتى لم يهتم بكتابة التاريخ بشكل جدى قبل مجىء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) أى بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

---

(١) Gibb : Op. Cit., pp. 26, 27, 50.

بتسع سنوات ، وكان كل ما كتبه قبل ذلك التاريخ هو بعض ترجمات متفرقة لأعيان القرن الثاني عشر وحتى هذه الترجمات كان الجبرتي قد توقف عنها عقب وفاة مراد بك عام ١٢٠٦ هـ (١٧٩١م) ، وفترت همته حتى عاد لكتابة التاريخ بدافع جديد مع مجيء الحملة الفرنسية الى مصر (١) .

٢ ـ ان الحملة الفرنسية قد شغلت الجبرتي عما عداها من احداث خلال فترة وجود الفرنسيين في مصر، فهو يقول في بداية الجزء الثالث من عجائب الآثار عن عام ١٢١٣ هـ (سنة وصول الحملة الفرنسية) .. « وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب » (٢) .

٣ ـ ان دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تلفت الأنظار في المنطقة ـ خارج شبه الجزيرة ـ الا بعد أن

---

(١) ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٣ ص ١١٣٠ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ص ٢ .

شرع آل سعود في تهديد الحجاز ، كما ان السلطات العثمانية لم تكن تنظر الى هجمات السعوديين على العراق قبل ذلك التاريخ الا على انها مجرد مشكلات على الحدود يمكن أن يواجهها والى بغداد (١) .

وكانت أول اشارة أوردها الجبرتي في عجائب الآثار عن تحركات أنصار الدعوة السلفية هي ما ذكره في حوادث شعبان عام ١٢١٧ هـ عندما قال « وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وعلمائها هروبا من الوهابيين .. » (٢) .

وقد أورد الجبرتي أخبار آل سعود ومبادىء الدعوة السلفية بعد هذا التاريخ في أكثر من سبعين موضعا غطت الفترة من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢م) وحتى عام ١٢٣٦ هـ (١٨٢٠ م) (٣) .

---

(١) Gibb : Islamic Society and the West, Vol, I, p, 234.

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٣٢ .

(٣) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ .

ج ٤ : ص ص ٥ ، ٦ ، ١٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٠٣ ؛ ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ـ ١٣٨ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٩ .

ولعل أبرز ما يلفت النظر في هذه القضية هو رؤية الجبرتي لأطراف الصراع في شبه جزيرة العرب وهو في البداية صراع بين الأشراف وآل سعود وهي رؤية تتسم بالتعاطف مع أنصار الدعوة السلفية ٠

الصراع بين الأشراف وآل سعود :

ان أول ما كتبه الجبرتي حول هذا الموضوع هو تحريض أشراف مكة للعثمانيين ضد آل سعود واستعدائهم عليهم خصوصا بعد أن تدهور موقف الأشراف في هذا الصراع على الرغم من ان الأشراف كانوا هم البادئين بهذه العداوة عندما رفض الشريف مسعود بن سعيد الذي عاصر الأمير محمد بن سعود (١١٣٨ هـ ـ ١١٧٩ هـ / ١٧٢٥ ـ ١٧٦٥ م) أن يسمح لأهل نجد بأداء فريضة الحج ، ثم شرع الأشراف في مهاجمة أطراف نجد ابتداء من عام ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) ٠ غير انه ابتداء من عام ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) بات واضحا أن مركز الأشراف قد أخذ يتدهور في هذا الصراع بعد أن أخذت بعض قبائل الحجاز تنفض عنهم وتنضم للدعوة السلفية، ، فراح الأشراف يستنجدون بالدولة العثمانية ويحرضونها ضد

آل سعود • (١) ومن ثم تحركت وفود الأشراف الى القاهرة في طريقها الى القسطنطينية لاستعداء الدولة العثمانية وطلب مساعدتها ، فالجبرتي يذكر في حوادث شهر شعبان من عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) « وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وعلمائها هروبا من الوهابيين وقصدهم السفر الى استانبول يخبرون الدولة بقيام الوهابيين ويستنجدون بهم لينقذوهم منهم ويبادروا لنصرهم عليهم فذهبوا الى بيت الباشا والدفتردار وأكابر البلد وصاروا يحكون ويشكون وتنقل الناس أخبارهم وحكايتهم « (٢) •

ثم يذكر الجبرتي في أحداث شهر شوال من نفس العام نبأ وصول مجموعات أخرى من الأشراف لنفس الغرض وهو استعداء الدولة العثمانية ضد آل سعود فيقول « وفي غايته حضر أولاد الشريف سرور شريف مكة هربا من الوهابيين يستنجدون بالدولة فنزلوا ببيت المحروقي بعد ما قابلوا محمد باشا والى مصر وشريف باشا والى جدة » (٣) •

---

(١) حول تطور علاقة آل سعود بالاشراف انظر :
د• عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١١٤ ، ١١٩ •
(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٣٢ •
(٣) عجائب الآثار ، جـ ٣ ص ٢٣٣ •

ويبدو أن الدولة العثمانية بدأت تستجيب خلال هذه الفترة المبكرة لنداءات الأشراف ، فالجبرتى يقول فى أحداث شهر ذى القعدة عام ١٢١٧ هـ « وفى خامس عشرينه حضر أحمد باشا الى دمياط وكانوا أرسلوا له طوخا ثالثا وانه يحضر ويتوجه لمحافظة مكة وكذلك قلدوا آخر باشوية المدينة يسمى أحمد باشا وضموا لها عسكرا يسافرون صحبتهم للمحافظة من الوهابيين وأخذوا في التشهيل » (١) .

وعندما استولى آل سعود فى هجوم صاعق على الطائف عام ١٢١٧ هـ على أثر الانشقاق الذى حدث فى جبهة الأشراف بانضمام عثمان بن عبد الرحمن المضايفى الى آل سعود كتب الجبرتى فى أحداث شهر ذى الحجة يقول « وفى يوم الجمعة خامس عشرة حضرت مكاتبات من الديار الحجازية يخبرون فيها عن الوهابيين انهم حضروا الى جهة الطائف فخرج اليهم شريف مكة الشريف غالب فحاربهم فهزموه فرجع الى الطائف فأحرق داره التى بها وخرج هاربا الى مكة فحضر الوهابيون الى البلدة وكبيرهم المضايفى نسيب الشريف وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشة فذهب مع

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤ .

الوهابيين وطلب من سعود الوهابى أن يؤمره على العسكر الموجهة لمحاربة الشريف ففعل فحاربوا الطائف وحاربهم أهلها ثلاثة أيام حتى غلبوا فأخذ البلدة الوهابيون واستولوا عليها عنوة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال » (١) .

ثم يسجل الجبرتى أخبار استيلاء آل سعود على مكة عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) وانسحاب الشريف غالب منها وهدم القباب ومشاهد القبور فى حوادث شهر المحرم فيقول «وفيه حضر هجان على يده مكاتيب مؤرخة فى عشرين شهر الحجة مضمونها ان الوهابيين أحاطوا بالديار الحجازية وان شريف مكة الشريف غالب تداخل مع شريف باشا (سنجق جدة) وأمير الحج المصرى والشامى وأرشاهم حتى يتعوقوا معه أياما حتى ينقل ماله ومتاعه الى جدة وذلك بعد اختلاف كبير وحل وربط » (٢) .

ثم يعود الجبرتى فيؤكد خبر استيلاء آل سعود على مكة فى حوادث نفس الشهر فيقول « وفى يوم الأحد حضر الشريف عبد الله بن سرور وصحبته بعض أقاربه

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ص ٢٣٥ .

(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

من شرفاء مكة وأتباعهم نحو ستين نفرا وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج وان عبد العزيز بن سعود الوهابى دخل مكة من غير حرب وولى الشريف عبد المعين أميرا على مكة والشيخ عقيل قاضيا وانه هدم قبة زمزم والقباب التى حول الكعبة والأبنية التى أعلى من الكعبة وذلك بعد أن عقد مجلسا بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة وأخبروا ان الشريف غالب وشريف باشا ذهبا الى جدة وتحصنا بها وانهم فارقوا الحجاج فى الجديدة» (١) .

وما لبث الجبرتى أن أورد خبر استرداد الشريف غالب مكة بعد عودة قوات آل سعود الرئيسية الى نجد ، وقد ذكر ذلك فى موضعين ، ففى أحداث شهر ربيع الثانى من نفس العام يقول « وفى يوم السبت رابعه وردت هجانة من ناحية الينبع وأخبروا ان الوهابيين جلوا عن جدة ومكة بسبب أنهم جاءهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعية وملكوا بعضها والأوراق بها خطاب من شريف باشا وشريف مكة لطاهر باشا ظن حياته » (٢) ثم يقول فى حوادث شهر جمادى الثانية »

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٦٠ .

وفي هذا الشهر تحقق الخبر بجلاء الوهابى عن جـدة ومـكة ورجـوعه الى بلاده وذلك بعد أن حاصر جـدة وحاربها تسعة أيام وقطع عنها الماء ثم رحل عنها وعن مكة ورجـع الشريف غالب الى مكة وصـحبته شريف باشا » (١) ٠

وعنـدما عادت قوات آل سـعود الى محاصرة مكة وتضييق الخناق على الشريف غالب كتب الجبرتى فى حوادث شهر ربيع أول عام ١٢١٩ هـ (١٨٠٤ م) يقول « وفى ثالث عشرة ورد الخبر بوصـول مراكب ناوات من القلزم الى السويس وفيها حجاج والمحمل وأخبروا بمحاصرة الوهابيين لمكة والمدينة وجدة » ٠ ثم يصـور الأوضاع فى المدينة خلال فترة الحصار بقوله « ان أكثر أهل المدينة ماتوا جوعا لعـزة الأقوات والأردب القمح بخمسين فرانسا ان وجد والأرز بمائة فرانسـا وقس على ذلك » (٢) ٠

ثم أشار الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الثانى الى سقوط ينبع فى أيدى قوات آل سـعود ، كمـا أشـار الجبرتى الى تحريك الدولة العثمانية لبعض قواتها فى

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٢٦٤ ٠
(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ ٠

الشام الى الحجاز (١) ، وطلب السلطات العثمانية من والى مصر ارسال ما يحتاجه باشا يتبع العثمانى من ذخيرة « لمحافظتها من الوهابيين » .. وكذلك اعطاء محمد باشا والى جدة « ما يحتاجه من الذخيرة لأجل حفظ الحرمين » (٢) .

وكنتيجة لوطأة الحصار وادراك الشريف غالب انه لم يعد فى وسعه مقاومة قوات آل سعود طلب الشريف غالب الصلح وقبل آن يبقى فى اماراته تابعا للدرعية منفذا لتعليمات الدعوة السلفية ، وتم الصلح بينه وبين آل سعود ، وعلى آثر ذلك دخلت قوات آل سعود مكة وفتحت الطرق المؤدية لها (٣) . وقد سجل الجبرتى هذه الحقائق فى حوادث شهر المحرم ١٢٢١هـ(١٨٠٦م) بقوله « وفى هذه الأيام أيضا وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين وذلك لشدة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية حتى وصل ثمن الأردب المصرى من الأرز خمسمائة ريال والاردب البر ثلثمائة وعشرة وقس على

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ .
(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ص ٣١١ .
(٣) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

ذلك السمن والعسل وغير ذلك فلم يسع الشريف الا مسالمتهم والدخول فى طاعتهم وسلوك طريقتهم وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الأراجيل بالتنباك فى المسعى وبين الصفا والمروة وبالملازمة على الصلوات فى الجماعة ودفع الزكاة وترك لبس الحرير والمقصبات وابطال المكوس والمظالم » (١) ·

ويوضح الجبرتى كيف ان سيطرة آل سعود قد عكست بعض الرخاء فى تلك المناطق فيقول « فعند ذلك أمنت السبل وسلكت الطرق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال حتى بيع الأردب من الحنطة بأربعة ريال » (٢) ·

ولم تنه معاهدة عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م) الصراع بين الأشراف وآل سعود فقد واصل الأشراف تحريض الدولة العثمانية ضد آل سعود سرا خصوصا بعد أن لاحت بوادر تدخل محمد على فى شبه الجزيرة ، وخلال

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٥ ·
(٢) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٦ ·

تلك الفترة كان الشريف غالب يلعب سياسة مزدوجة تقوم على اظهار الولاء لآل سعود والعمل فى نفس الوقت على الاتصال بالدولة العثمانيــة ومحمــد على فى مصر مبديا استعداده لمساعدتهم وهى الحقيقة التى آشار اليها الجبرتى فى حــوادث شــهر رمضــان عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) (والشريف غالب امير مكة يكاتب الباشا ويراسله ويظهر له النصح والصداقة وخلوص المــودة والباشا أيضا يراسله ويكاتبه وأرسل له السيد ســلامة البخارى والســيد احمــد المــلا الترجمان المحــروقى بمراسلات وجوابات مرارا عديدة فكانا هما السفيرين بينهما وأيضا الشريف فى كل كتــابة مع كل مرســول يعاهد الباشا ويعاقده ويواعده بنصر عســـاكره متى وصلت وينافق الطرفين اللذين هما العثمانى والوهابى ويداهنهما • آما الوهابى فلخوفه منه وعدم قدرته عليه فيظهر له الموافقة والامتثال وانه معه على العهود التى عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك ويميل باطنه للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذهبهم وتعاقد مع الباشا انه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم وساعدهم بكليتــه وجميع همتــه وآرســل الى المراكب الكائنة بمرساة الينبع بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار

وعيرتم فيودعوه قلعة الينبع تحت يد وزيره وترك معه نحو الخمسمائة من عسكره وأخذ المراكب فأوسقها من بضائعه وبهاره وبنه وأرسلها الى السويس لتباع بمصر ثم توسق بمهمات العسكر البحرية » (١) .

وخلال عرض الجبرتى للصراع بين آل سعود والأشراف فى تلك الفترة تعرض الجبرتى لقضية فساد حكم الأشراف فى مكة فى آكثر من موضع ، فهو يقول فى ترجمته لحياة محمد آفندى الموظف بالرزنامة (ت ١٢١٨ هـ) « ولما اختلفت الأحوال وترادفت الفتن ضاق صدره من ذلك واستوحش من مصر وأحوالها فقصد الهجرة بأهله وعياله الى الحرمين وعزم على الاقامة هناك فلما وصل هناك رآى فيها الاختلاف والخلل كذلك بسبب ظلم الشريف غالب وآتباعه وغارة الوهابيين على الحرمين وفتن العربان فلم يستحسن الاقامة هناك » (٢) ويستطرد الجبرتى فى وصف مساوىء حكم الاشراف خلال تعليقه على الصلح الذى وقعه الشريف غالب مع آل سعود فيقول الجبرتى «انه تم ابطال المكوس والمظالم وان الاشراف كانوا قد خرجوا

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ١٣٥ .
(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٨٧ .

عن الحدود في ذلك « حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة قرانسة وعشرة بحسب حاله وان لم يدفع أهله القدر الذى يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ولا يتقرب اليه الفاسل ليغسله حتى يأتيه الاذن وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التى احدثوها على المبيعات والمشتروات على البائع والمشترى ومصادرات الناس في أموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالسا بداره فما يشعر على حين غفلة منه الا والأعوان يأمرونه باخلاء الدار وخروجه منها ويقولون ان سيد الجميع محتاج اليها فاما آن يخرج منها وتصير من أملاك الشريف واما آن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر فعاهده على ترك ذلك كله » (١) ·

ويرى الجبرتى انه على الرغم من الصلح الذى تم بين آل سعود وبين الشريف غالب بعد مناظرة تمت مع علماء الدعوة السلفية « واقامة الحجة بالأدلة التى لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة » فان الشريف غالب استمر يأخذ العشور من التجار « واذا نوقش في ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين » (٢) ·

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥ ·
(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ص ٦ ·

الحرب فى شبه الجزيرة :

فى أعقاب استيلاء آل سعود على المدينة المنورة فى عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م) ودخـول الشريف غالب فى طاعتهم اتخـذ الأمير سـعود (١٢١٨ ـ ١٢٢٩ هـ / ١٨٠٣ ـ ١٨١٤ م) ـ خلال أدائه فريضة الحج عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م) ـ عدة اجراءات لتأكيد سيادة آل سعود على الحجاز وازالة كل مظهر لسيادة العثمانيين على الأماكن المقدسة . فطرد الموظفين الأتراك وبقـايا الحامية العثمانية والقاضيين التركيين من مكة والمدينة وأصدر أمرا بمنع قوافل الحج المصحوبة بالمحمل والآتية من مصر والشام . وبذلك آزيلت كل مظاهر السـيادة العثمانيـة عـلى الحرمين الشريفين (١) ٠ وقد آشـار الجبرتى الى هذه الوقائع فى حوادث شهر ربيع الثـانى عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) بقوله « وفى يوم الأحـد سابعه وصلت القافلة والحجاج من ناحية القلزم عـلى مرسى السويس وحضر فيها أغوات الحرم والقاضى الذى توجه لقضاء المدينة وهو المعروف بسعد بيك وكذلك خدام الحرم المكى وقد طردهم الوهابى جميعـا وأما

---

(١) د٠ عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ١٣٦ ٠

القاضي المنفصل فنزل في مركب ولم يظهر خبره وقاضي مكة توجه بصحبة الشاميين وأخبر الواصلون انهم منعوا من زيارة المدينة وان الوهابي آخذ كل ما كان في الحجرة النبوية من الذخائر والجواهر وحضر أيضا الذي كان أميرا على ركب الحجاج وصحبته مكاتبة من مسعود الوهابي ومكتوب من شريف مكة وأخبروا انه أمر بحرق المحمل » ·

وقد أشار الجبرتي الى أن الأخبار التي كانت تردد عن الموحدين خلال تلك الفترة كانت تخضع لأهواء أصحابها فيقول مستطردا « واضطربت أخبار الاخباريين عن الوهابي بحسب الأغراض ومكاتبة الوهابي بمعنى الكلام السابق في نحو الكراسة وذكر فيها ما ينسبونه الناس اليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع ويتبرأ عنها » (١) ·

وكان طبيعيا أن تثير سيطرة آل سعود على الحرمين الدولة العثمانية لأن خروج الأماكن المقدسة من سيادتها كان سوف يضعف من مركزها في العالم الاسلامي ، ومن ناحية أخرى فان الأشراف واصلوا الاتصال بالدولة

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٦٠ ·

العثمانية وراحوا يضخمون من تصرفات آل سعود فى مواجهــة الدولة العثمانيــة (١) • كما ان العنــاصر المستفيدة من الأوضاع التى كانت سائدة فى ظل حــكم الأشراف والدولة العثمانية راحت هى الأخرى تضغط فى اتجــاه تحــريض العثمانيين عــلى استرداد السيادة العثمانية على الحجاز . وقد أشار الجبرتى الى الحقيقة الأخيرة فى حــوادث شــهر ذى الحجــة عــام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨م) بقوله : « لما امتنعت قوافل الحج المصرى والشامى وانقطع عن آهل المدينة ومكة ما كان يصــل اليهم من الصــدقات والعــلائف والصرر التى كانــوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونســائهم ولم يمكث الا الذى ليس له ايرادمن ذلك وأتوا الى مصر والشــام ومنهم من ذهب الى اســتامبول يتشــكون من الوهابى ويستغيثون بالدولة فى خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من اجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم فى الوظائف التى بأســماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك ويذكرون أن الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفــة من

---

(١) د• عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ ، ١٣٧ •

الذخائر والجواهر ونقلها واخـذها فيرون ان أخـذه لذلك من الكبائر العظام » (١) .

وكان طبيعيا أن تتحرك الدولة العثمانيـة جديا للقضاء على نفوذ آل سعود للحفاظ على هيبتها ومصالحها خصوصا بعد استمرار آل سـعود في تهـديد العـراق والشـام ، وشرعت الدولة العثمانيـة فى البـداية بالاستعانة بولاة الشام والعراق ، فيذكر الجبرتى فى حوادث شهر صفر من عام ١٢٢٤ هـ (١٨٠٩ م) انه ورد فى ذلك الشهر « آمر بالسفر والخـروج الى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما وان يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام وكذلك سليمان باشا والى بغـداد متعين أيضـا بالسفر من ناحيته على الدرعية وآحضر للباشـا تقريرا بالولاية مجددا » (٢) .

وأول اشـارة لاستعدادات محمد عـلى لحرب شبه الجزيرة أوردها الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الثانية عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) بتقليد ديوان آفندى «نظر مهمات الحرمين والتأهب لسفر الحجاز لمحاربة الوهابية».

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٨٥ .

(٢) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٨٩ .

ثم يذكر في حوادث شهر رجب نبأ وصول منـدوب من طرف الدولة العثمانية يحمل أوامره « وخلعه وسيف وخنجر لمحمد على باشـا وصحبته أيضا مهمات وآلات ومراكب ولوازم حروب لسفر البلاد الحجازية ومحاربة الوهابية » (١) ٠

وعندما شرع محمد على في ارسال قواته الى شبه جزيرة العرب بقيادة ابنه طوسون آشـار الجبرتى الى ذلك فى حوادث شـهر صفر عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١م) بقوله « وفيه قلد الباشا ابنه طوسون باشا صارى عسكر الركب الموجه الى الحجاز وأخرجوا جيشهم الى ناحيـة قبة العزب ونصبوا عرضيا وخيـاما وآظهـر الباشـا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التوانى ونوه بتفسـير عساكر لناحية الشام لتمليك يوسف باشا لمحله وصارى عسكرهم شاهين بيك الألفى ونحـو ذلك من الايهامات وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتا صالحا لالباس ابنه

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ص ص ١١٨ ، ١١٩ ـ تشير الوثائق المصرية الى ان أول تكليف من قبل السلطان العثمانى لمحمد على بالتدخل فى شبه الجزيرة كان فى عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) ولكن محمد على اعتذر بسبب تدهور أوضاع مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت ٠

د٠ عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ ٠

خلعة السفر فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة » (١) ٠

ولست هنا بصدد الاستطراد فى متابعة ما آورده الجبرتى عن أخبار هذه الحرب ولكن يهمنا فى هذا المجال رؤية الجبرتى لأطراف الصراع وهى رؤية يمكن ادراكها من التعليقات التى آوردها الجبرتى عن سير الحرب وهى رغم قلتها توضح موقف الجبرتى من هذه القضية ٠

فخلال عرضه لبعض وقائع الحرب فى شبه الجزيرة تعرض الجبرتى بشكل سريع لبعض القضايا المتصلة بهذه الحرب منها نوعية القوات التى شاركت فى حرب شبه الجزيرة ، والجبرتى يصف هذه القوات بما يفيد انها كانت بعيدة كل البعد عن الدين والأخلاق رغم انهم يطلقون على أنفسهم لقب المجاهدين ، فهو يقول فى حوادث شهر رمضان عام ١٢٢٩ هـ « برز دبوس أوغلى خارج باب الفتوح ليسافر بعسكره الى الحجاز وكذلك حسن أغا سرششمة ونصبوا خيامهم واستمروا يخرجون من المدينة ويدخلون غدوا وعشيا وهم يأكلون ويشربون

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٥ ٠

جهـارا نهارا في رمضـان ويقـولون نحن مسـافرون ومجاهدون ويمرون بالأسواق ويجلسون على المصاطب وبأيديهم الأقصاب والشبكات التي يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حياء ٠٠ وأشنع من ذلك انه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النساء الخواطي والبغايا ونصبوا لهم خياما واخصـاصا وانضم اليهم بياع البوظة والعرقي والحشاشون والغوازي والرقاصون وأمثال ذلك وانحشر معهم الكثير من الفسـاق وأهـل الأهواء والعياق من أولاد البلد فكانوا جمعـا عظيما يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا في رمضـان ولياليه مختلطين مع العساكر كانما سقط عن الجميع التكاليف وخلصوا من الحساب ٠٠ » (١) ٠

ويؤكد الجبرتي فكرته هذه مرة أخرى وهو يتحدث عن الامدادات التي أرسلت الى شبه الجزيرة العربيـة خلال شهري شعبان ورمضان عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٨م) « وارتحل جملة من العساكر في دفعات ثلاث برا وبحرا يتلو بعضهم بعضا في شعبان ورمضان وبرز عـرضي خليل باشا الى خارج باب النصر وترددوا في الخـروج

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٢١٣ ٠

والدخول واستباحوا الفطر فى رمضان بحجة السفر فيجلس الكثير منهم · فى الأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشوارع وبأيديهم آقصاب الدخان والتتن من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم وفى اعتقادهم الخروج بقصد الجهاد » (١) ·

ومن ناحية أخرى تعرض الجبرتى لأسلوب محمد على فى ادارة الصراع وهو أسلوب يقوم على استخدام كل وسائل الخديعة والمكر ليس فقط مع أعدائه ومعارضيه بل ومع العناصر التى تعاونت معه أيضا من أمثال الشريف غالب ، يفهم ذلك مما آورده الجبرتى فى عدد من المواضع أولها مذبحة القلعة التى نفذها محمد على فى المماليك بينما كان يحتفل بتنصيب ابنه طوسون قائدا للقوات المتوجهة الى حرب الموحدين فى شبه الجزيرة ، وقد آورد الجبرتى تفاصيل هذه الواقعة فى حوادث شهر صفر ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) ويعلق على هذه المذبحة التى غدر فيها محمد على بالمماليك دون سابق انذار بقوله « فكانت هذه الكائنة من أشنع الحوادث التى لم يتفق مثلها » (٢) ·

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ ·

(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٣١ ·

ويعرض الجبرتى مرة أخرى لأسلوب محمد على القائم على الخديعة فى التعامل مع أعدائه فيما أورده عن الطريقة التى تم بها أسر طامى بن شعيب فيقول الجبرتى فى حوادث شهر جمادى الأولى ١٢٣٠ هـ » ٠٠ ووردت مكاتبات بالقبض على طامى الذى جرى منه ما جرى فى وقائع قنفذة السابقة وقتله العساكر فلم يزل راجح الذى اصطلح مع الباشا ينصب له الحبائل حتى صاده وذلك انه عمل لابن أخيه مبلغا من المال ان هو أوقعه فى شركه فعمل له وليمة ودعاه الى محله فأتاه آمنا فقبض عليه واغتاله طمعا فى المال وآتوا به الى عرضى الباشا فوجهه الى بندر جدة فى الحال وأنزلوه السفينة وحضروا به الىالسويس وعجلوا بحضوره»(١)

ومرة ثالثة يوضح الجبرتى أسلوب محمد على القائم على الغدر فى الطريقة التى تم بها القبض على ابن الشريف حمود عندما شرعت قوات خليل باشا تتحرك فى ديسمبر ١٨١٨ لضم منطقة آبى عريش

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ٠ وكامى بن شعيب ٠ هو أحد القادة السعوديين المتحمسين للدعوة السلفية وقد عينه الأمير سعود الكبير أميرا على منطقة عسير عام ١٨٠٩ ولعب دورا هاما فى مقاومة الفتح المصرى لهذا الاقليم ٠ انظر ٠ د٠ عبد الحميد البطريق ، من تاريخ اليمن الحديث ٠ القاهرة ١٩٦٩ . ص ٥٠ ٠

اليمنية (١) . فالجبرتي يقول في حوادث شهر رمضان ١٢٣٤ (١٨١٩م) وصل جماعة هجانة من جهة الحجاز وصحبتهم ابن حمود أمير يمن الحجاز وذلك انه لما مات أبوه تأمر عوضه وأظهر الطاعة وعدم المخالفة للدولة فلما توجه خليل باشا الى اليمن آخلى له البلاد واعتزل في حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربته كما فعل أبوه وترددت بينهما المراسلات والمخادعات حتى نزل من حصنه وحضر عند خليل باشا فقبض عليه وأرسله مع الهجانة الى مصر » (٢) .

ويوضح الجبرتي ان هذا الأسلوب في التعامل لم ينج منه حتى أولئك الذين تعاونوا مع محمد على أمثال الشريف غالب الذى ذكر الجبرتي تفاصيل القبض عليه وذهابه الى القاهرة ثم نفيه بعد ذلك بواسطة

---

(١) عندما بدأت حملات محمد على على الحجاز اراد ان يستغل الخلاف الناشب بين آل سعود وبين الشريف حمود أمير منطقة أبى عريش فارسل محمد على أحد اتباعه وهو يوسف اغا الى الشريف حمود ليعرض عليه التعاون مع قوات محمد على ضد قوات آل سعود في عسير بقيادة طامى بن شعيب ، وعندما ذهب محمد على بنفسه الى الحجاز فى أغسطس ١٨١٣ وجه قواته في يناير ١٨١٥ نحو أقليم عسير وانتصرت قواته على طامى بن شعيب واستولت على رأنيه وبيشه وبعد عودة محمد على الى مصر قامت حملة بقيادة خليل باشا لضم منطقة أبى عريش ونجحت فى الاستيلاء عليها : المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ص ٣٠٣ .

السلطان العثمانى فالجبرتى يقول فى حوادث شهر محرم ١٢٢٩ هـ « وفى يوم الأحد سابع عشرة وصل السيد غالب شريف مكة مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم الى مرساة ثغر القصير فتلقاه ابراهيم باشا وحضر صحبته الى قنا وقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلون صحبته وحضر الى مصر القديمة • » (١) •

ويستطرد الجبرتى فيقول « والذى بلغنا فى كيفية القبض عليه انه لما ذهب الباشا الى مكة واستمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريفغالب على المصادقة والمسالمة والمصافاة وجدد معه العهود والايمان فى جوف الكعبة بألا يخون أحد صاحبه وكان الباشا يذهب اليه فى قلة وهو الآخر يأتى اليه والى ابنه كذلك واستمروا على ذلك خمسة عشر يوما من ذى القعدة • دعاه طوسون باشا اليه فأتى اليه كعادته فى قلة فوجد بالدار عساكر كثيرة ، فعندما استقر به المجلس وصل عابدين بيك فى عدة وافرة وطلع الى المجلس فدنا منه وأخذ الجنبية من حزامه وقال له انت مطلوب للدولة فقال سمعا وطاعة ولكن حتى أقضى أشغالى فى ظرف

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ،ظ ص ١٩٩ •

ثلاثة أيام وأتوجه فقال لا سبيل الى ذلك والسفينة حاضرة في انتظارك فحصل فى جماعة الشريف وعبيده رجة وصعدوا على أبراج سرايته وأرادوا الحرب فأرسل اليهم الباشا يقول لهم ان وقع منكم حرب أحرقت البلدة وقتلت أستاذكم وأرسل لهم أيضا الشريف يكفهم عن ذلك وكان بها أولاده الثلاثة فحضر اليهم الشيخ أحمد تركى وهو من خواص الشريف وخدمهم وقال لهم لم يكن هناك بأس وانما والدكم مطلوب فى مشاورة مع الدولة ويعود بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم نيابة عن أبيه الى حين رجوعه ولم يزل حتى انخدع كبيرهم لكلامه وقاموا معه فذهب بهم الى محل خلاف الذى به والدهم » (١) .

ويستطرد الجبرتى فيصور المعاملة التى لقيها الشريف غالب وأسرته من سلطات محمد على فيقول الجبرتي « وفيه (شهر محرم) أيضا وصل حريم الشريف غالب فعينوا له دار يسكنها مع حريمه جهة سويقة العربى فسكنها ومعه أولاده وعليهم المحافظون واستولى الباشا على موجودات الشريف غالب من نقود وأمتعة وودائع ومخبآت وشرك وتجارات وبن وبهار ونقود

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٢٠٠ .

بمكة وجدة والهند واليمن شيء لا يعلم قدره الا الله أخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهم من الثياب بعد ما فتشوهن تفتيشا فاحشا وهتك حرمته . قل اللهم مالك الملك هذا الشريف غالب انتزع من مملكته وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخائره وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين حتى انه لما ركب وخرج مع العسكر وهم متوجهون به الى جدة أخذوا ما فى جيوبه فليعتبر من يعتبر وكل الذى وقع له وما سيقع له بعد من التغريب وغيره فيما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة والطمع فى الدنيا وتحصيلها بأى طريق » (١) .

فكيف كان الجبرتى يرى الطرف الآخر من أطراف الصراع وهم آل سعود وأنصار الدعوة السلفية .

ان أوضح ما كتبه الجبرتى فى هذا المجال هو تعليقه على الوفد السعودى الذى حضر الى القاهرة فى سبتمبر عام ١٨١٥ وضم عبد الله بن محمد والقاضى عبد العزيز حمد بن ابراهيم وذلك عندما حاول عبدالله ابن سعود أن يبذل جهده للوصول الى اتفاق مع محمد

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

على حقنا للدماء فقد أورد الجبرتي نبأ وصول هذا الوفد الى القاهرة في حوادث شهر شوال عام ١٢٣٠ هـ ٠ ويذكر الجبرتي انه التقى بذلك الوفد مرتين ويقول « فوجدت منهما انسا وطلاقة لسان واطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحسن الأدب في الخطاب والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف واسم أحدهما عبد الله والآخر عبد العزيز وهو لأكبر حسا ومعنى » (١) ٠

والجبرتي ساءه أن يرى أسرى من المسلمين الذين حاربوا لنصرة هذه الدعوة يباعون في الأسواق فهو يقول في حوادث شهر صفر ١٢٣٥ هـ « وفيه وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز وصحبتهم أسرى ونساء من الوهابية وبنات وغلمانا نزلوا عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم » ويعلق الجبرتي على ذلك بقوله « مع انهم مسلمون وأحرار » (٢) ٠

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ ٠
(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ ٠

وهناك ملاحظة أخيرة تتصل بموقف الجبرتي من أحداث الصراع في جزيرة العرب وهي : انه على الرغم من أن الجبرتي كان ينفر من العنف بطريقة جعلته يكاد يدين ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين (أكتوبر ١٧٩٨ م) لما صاحبها من عنف (١) • الا أننا لا نجد في كتابات الجبرتي أو تعليقاته ما يفيد استنكاره للأسلوب العنيف الذى اتبعه أنصار الدعوة السلفية مع أعدائهم وكانت الاشارة الوحيدة التي أوردها الجبرتي في هذا الشأن هي ما ذكره الجبرتي في عام ١٢١٧ هـ (١٨٠٣م) عند استيلاء قوات آل سعود على الطائف في أحداث شهر ذى الحجة حيث يقول « •• فحاربوا الطائف وحاربهمأهلها ثلاثة أيام حتى غلبوا فأخذ البلدة الوهابيون واستولوا عليها عنوة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال وهذا دأبهم مع من يحاربهم » (٢) •

ويلاحظ من هذا العرض أن الجبرتي كان متعاطفا مع أنصار الدعوة السلفية • وهذا التعاطف نابع من رؤية الجبرتي لمبادىء الدعوة السلفية نفسها •

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ١٦١ •

(٢) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ •

رؤية الجبرتي لمبادىء الدعوة السلفية :

لم يذكر الجبرتي رأيه في مبادىء الدعوة السلفية في دراسة أو في مقدمة نظرية متكاملة وانما جاءت رؤية الجبرتي لمبادىء هذه الدعوة خلال تعليقه على الرسالة التي أوردها في الجزء الثالث من عجائب الآثار وتحوى جانبا من مبادىء الدعوة السلفية (١) · ثم خلال تعليقه على موقف أنصار هذه الدعوة من البدع السائدة في عصرهم · وتركز الرسالة المشار اليها على قضية محورية هي : قضية التوحيد واخلاص العبادة لله وتستدل على ذلك بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كما تركز على رفض البدع التي شابت الحياة الاسلامية وتقول الرسالة ان « ·· أعظمها الاشراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات لا يقدر عليها الا رب الأرض والسماوات وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبائح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله » ·

---

(١) يقول الأستاذ احمد علي في كتابه آل سعود ان هذه الرسالة هي من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أحد أبنائه ·

- أحمد علي ، آل سعود ، مكة المكرمة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ ص ٢٠ ·

وفى النهاية تقول الرسالة « •• وتدعو الناس الى اقامة الصلوات فى الجماعة على الوجه المشروع وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت الحرام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى (الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فهذا هو الذى نعتقده وندين به لله فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ما علينا ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وانه لا تزال طائفة من آمته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى آمر الله وهم على ذلك » (١) •

وعند هذا الحد تنتهى الرسالة ، ويقول الجبرتى تعليقا عليها « أقول ان كان كذلك فهذا ما ندين لله به نحن أيضا وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه اغاثة اللهفان وحافظ المقريزى فى تجريد التوحيد والامام البوسى فى شرح الكبرى وشرح الحكم

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ نص الرسالة ص ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ـ ويلاحظ أن الجبرتي أورد نص هذه الرسالة في بداية تناوله لحركة الموحدين •

لابن عباد وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك » (١) .

وكان الجبرتى قدم لهذه الرسالة بقوله « ثم رجعوا بالمحمل ودخلوا به المدينة وقت الظهر على خلاف العادة وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى ولغط الناس في خبر الوهابى واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه وأرسل الى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها » (٢) .

أما تعليقات الجبرتى على موقف أنصار الدعوة السلفية من البدع والمستحدثات فقد جاءت حول قضيتين الأولى هى ما تردد حول منع آل سعود الناس من الحج الى بيت الله الحرام والجبرتى ينفى ذلك أكثر من مرة ، فهو يقول فى أخبار شهر جمادى الثانية ١٢٢١ هـ (١٨٠٦م) وصلت قافلة من السويس وصحبتها المحمل فأدخلوه وشقوا به من المدينة وخلفه طبل وزمر وأمامه

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
(٢) عجائب الآثار ، جـ ٣ ، ص ٢٥٥ .

أكابر العسكر وأولاد الباشا ومصطفى جاويش المتسفر عليه ولقد أخبرني مصطفى جاويش المذكور انه لما ذهب الى مكة وكان الوهابي حضر الى الحج واجتمع به فقال له الوهابي ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها بينكم يشير بذلك القول الى المحمل فقال له جرت العادة من قديم الزمان بها يجعلونها علامة واشارة لاجتماع الحجاج فقال لا تفعلوا ذلك ولا تأتوا به بعد هذه المرة وان آتيتم به مرة أخرى فاني آكسره » (١)٠

ثم يقول الجبرتي في حوادث شهر المحرم عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧م) « وفيه ورد الخبر بأن ركب الحاج الشامي رجع من منزلة هدية ولم يحج في هذا العام وذلك انه لما وصل الى المنزلة المذكورة أرسل الوهابي الى عبد الله باشا آمير الحج يقول له لا تأت الا على الشروط التي شرطناها عليك في العام الماضي وهو أن يأتي بدون المحمل ومايصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفا للشرع فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج » ويقول الجبرتي تعليقا على ذلك « ولم يتركوا مناكيرهم » (٢) ٠

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ١٦ ٠
(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥٠ ٠

ثم يقول الجبرتي في أحداث شهر صفر « وفيه وصل حجاج المغاربة الى مصر من طريق البر وأخبروا انهم حجوا وقضوا مناسكهم وان مسعود الوهابى وصل الى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار وانه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق وبين الصفا والمروة وكذلك البدع » (١) ٠

وفي الشروط التي أوردها الجبرتي للاتفاق الذى تم بين الشريف غالب وآل سعود والذى قبل بمقتضاه الشريف غالب الدخول فى طاعة آل سعود (١٢٢١ هـ) ذكر الجبرتي جانبا من هذا الاتفاق فيقول « فعاهده (يقصد عاهد الشريف غالب الأمير سعود الكبير) على ترك ذلك واتباع ما أمر الله تعالى به فى كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون الى أواخر القرن الثالث وترك ما حدث فى الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات فى الشدائد والملمات وما أحدثوه من بناء القباب على القبور

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٥١ ٠

والتصاوير والزخارف وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أصناف الخلائق واختلاط النساء بالرجال وباقى الأشياء التى فيها شركة المخلوقين مع الخالق فى توحيد الالوهية التى بعثت الرسل الى مقاتلة من خالفها ليكون الدين كله لله فعاهده على منع ذلك كله وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثة التى لم تكن فى عهده » (١) .

أما القضية الأخرى التى حظيت باهتمام الجبرتى والتى تتصل بموقف انصار الدعوة السلفية من البدع التى شابت الحياة الاسلامية فى عصرهم فهى تعليقه المستفيض على موضوع استيلاء آل سعود على الأموال الموجودة بالغرفة النبوية الشريفة فيذكر الجبرتى فى حوادث شهر ذى الحجة عام ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨م) أن أهالى مكة والمدينة الذين تضرروا من انقطاع قوافل الحج المصرى والشام لجأ بعضهم الى استنبول يستعدون الدولة العثمانية « ويذكرون أن الوهابى استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٦ .

وأخذها فيرون ان أخذه لذلك من الكبائر العظام »
وينبرى الجبرتى للتعليق على ذلك موضحا رأيه فى هذه البدعة فيقول « وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم اما حرصا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهى فى الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم فى الأذهان حرمة تناولها وانها صارت مالا للنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقها والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب واختار أن يكون نبيا عبدا لا أن يكون نبيا ملكا » (١) .

ويستطرد الجبرتى فيقول « ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٨٥ .

والمساكين » ويقول الجبرتي ان وجود هذه الأموال « لا يسمع به احد الا ما يختلسه العبيد والخصيان الذين يقال لهم أغوات الحرم · والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم المحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعا وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها » (١) وهو بذلك لا يستنكر استيلاء آل سعود على هذه الأموال ·

ومن الواضح أن الجبرتي كان على اقتناع بالمبادىء التي تضمنتها الرسالة المشار اليها كما انه كان متعاطفا مع انصار الدعوة السلفية في موقفهم الرافض للبدع التي شابت الحياة الاسلامية خلال تلك الفترة وغير مستنكر لأسلوبهم العنيف في مواجهتها · وموقف الجبرتي المتعاطف مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية يعتبر امتدادا لموقفه الناقد لمظاهر الجمود والتخلف التي سادت الحياة الفكرية والدينية في عصره وهو موقف نابع من كون الجبرتي نفسه كان سلفيا (٢) ·

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٨٦ ·

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٨٦ ·

الجبرتى مؤرخا

تلك هى رؤية الجبرتى للحياة الفكرية والدينية فى عصره كما سجلها فى عجائب الآثار . وهى رؤية تتسم بالدقة والموضوعية ومن هنا تأتى أهمية الجبرتى كمؤرخ .

ودقة الجبرتى تظهر بوضوح فى المنهج الذى اتبعه فى كتابه عجائب الآثار وهو منهج يقوم على استقصاء الحوادث والتحفظ فى الكتابة عنها (١) . والجبرتى يؤكد هذه الحقيقة فى تعليقه على حوادث عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) بقوله « .. وانقضت السنة بحوادثها التى قصصت بعضها اذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن

(١) أبحاث ندوة القاهرة ، ج ٣ ، ص ١١٢٣ .

مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم فى الرواية فلا أكتب حادثة حتى اتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار وغالبها من الأمور الكلية التى لا تقبل الكثير من التحريف وربما أخرت حادثة حتى اثبتها ويحدث غيرها وانساها فأكتبها فى طيارة حتى أقيدها فى محلها ان شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة (١) • ثم يقول فى موضع آخر « ولم اخترع شيئا من تلقاء نفسى والله مطلع على أمرى وحدثى »(٢) • كما تظهر دقة الجبرتى أيضا فى الطريقة التى اتبعها فى جمع مادة (عجائب الآثار) فهو يقول بعد ان استعرض صعوبات الكتابة وقلة المصادر «وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع لكنه على نسق فى الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبى عبد الغنى مبتدئا فيه من وقت تملك بنى عثمان للديار المصرية وينتهى كغيره ممن ذكرنا الى خمسين ومائة وألف هجرية ثم ان ذلك الكتاب استعارد بعض الأصحاب وزلت به القدم ووقع فى صندوق العدم ومن ذلك الوقت الى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقييد ولم يسطر فى هذا

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٤ ص ٢١٤ •

(٢) عجائب الآثار ، ج ١ ص ٩٣ •

الشأن شيئا يفيد فرجعنا الى النقــل من أفواه الشيخة المسنين وصكوك دفاتر الكتبة والمبــاشرين وما انتقش على أحجار ترب المقبـورين وذلك من أول القــرن الى السبعين وما بعدها الى التســعين أمور شــاهدناها ثم نسيناها وتذكرناها ومنها الى وقتنا أمــور تعلقنــاها وقيدناها وسطوناها » (١) ٠

أما موضوعية الجبرتي فتتحلى فى انه كان يكتب للحقيقة وحدها وهى حقيقة يؤكدها ما كتبه الجبرتي عن عصر محمد على . فالجبرتي انتقد الكثير من أعمــال محمد على فى الجزء الرابع من (عجائب الآثار) وهــو النقد الذى جر عليه الكثير من المتاعب ومنها قتل ابنه الوحيد خليــل عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) (٢) لــكن ذلك لم يمنع الجبرتي من أن يقــول كلمة حق يلخص فيها رأيه فى حكم محمد على « وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هــذه الأزمان فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العز والرياسة والشهامة والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » (٣) ٠

---

(١) عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٦ ٠

(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، جـ ١ (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٦ ٠

(٣) عجائب الآثار ، جـ ٤ ، ص ٢٥٨ ٠

وقد أشار الجبرتى الى هذه الموضوعية فى مقدمة الجزء الأول من عجائب الآثار بقوله « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى » (١) .

وفى أطار هذه الدقة والموضوعية تعرف الجبرتى لكثير من قضايا عصره ومن بينها أزمة الحياة الفكرية والدينية كما عرضت لها .

واذا كان الجبرتى لم يوضح كيفية الخروج من المأزق الذى وصلت اليه الحضارة الاسلامية الا أن تعاطفه مع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهات يعنى موافقة الجبرتى على منهج الاصلاح السلفى .

---

(١) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٦ .

فهرس

الموضـــوع **الصفحة**

صدر من هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د · عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهـر
اعداد رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد عبد السلام عبد الحلم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د · محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
علية عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د · عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية فى عصره ·
د · على بركات

العدد القادم

صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ·
د · محمد أنيس

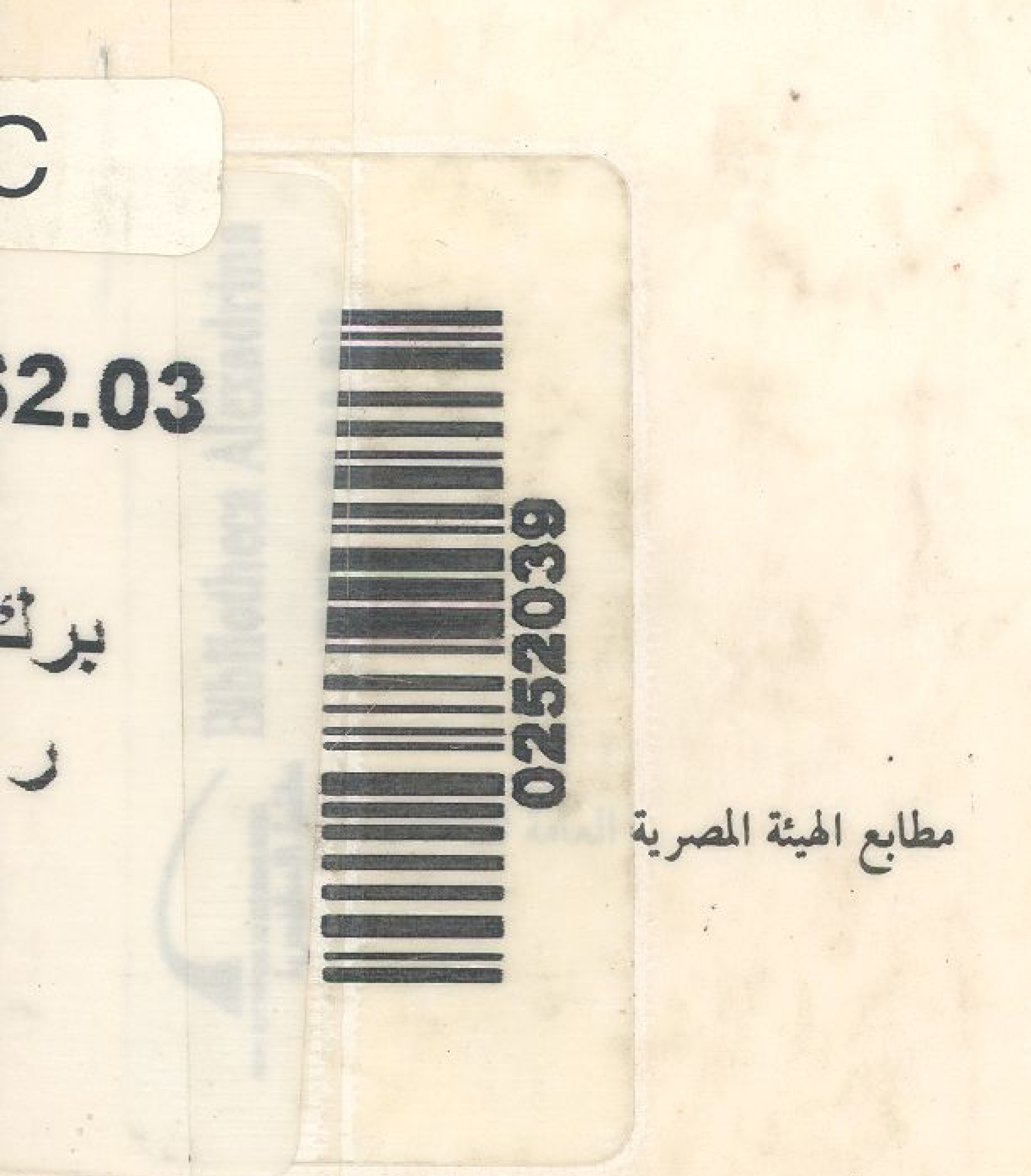
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٠٨ / ١٩٨٧

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ١٤٩٧ — ٩

يحتوى هذا الكتاب على رؤية الدكتور على بركات لرؤية الجبرتى لما وصلت إليه الحياة الفكرية والدينية فى مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وتجربة التحديث التى قادها محمد على فى مصر من مفاهيم وقيم حضارية ، وتقبل المجتمع المصرى لها دون مقاومة كبيرة .

ويقع الكتاب فى ثلاثة فصول : عالج الفصل الأول أوضاع الدولة العثمانية والحضارة الإسلامية بوجه عام ، وماطرأ عليها من أوجه الضعف والتدهور كما تناول الظروف التى بدأ الجبرتى فيها كتابة التاريخ . وتناول الفصل الثانى أزمة الحياة الفكرية فى كتابات الجبرتى وعالج الفصل الثالث رؤية الجبرتى لحركة الإصلاح السلفى وبداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتبنى آل سعود لها .
وختم المؤلف بخاتمة حاول فيها تقييم الجبرتى كمؤرخ .



مطابع الهيئة المصرية

٥٠ قرشا